المفارقة فى قصة
عبد الحميد جودة السحار (وكان مساء)

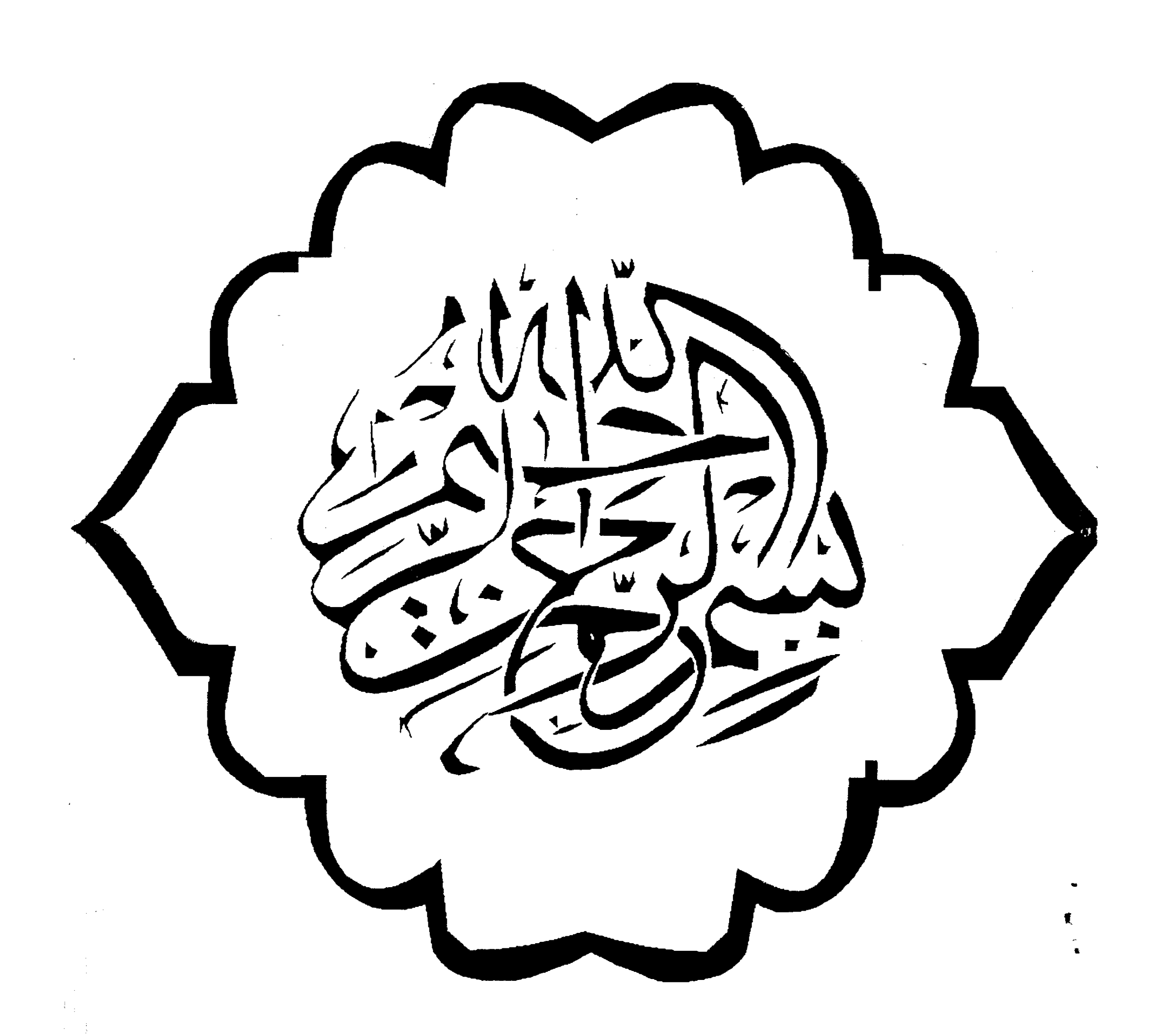
دكتور

عبد الناصر محمد السعيد

أستاذ

الأدب والنقد المساعد بجامعة الأزهر

طبعة ٢٠٠٠ ميلادية


بسم الله الرحمن الرحيم

تنـــــوير

أعترف أن دراسة كهذه لم تكن لتلوح في خـــاطرى، لـــولا معايشـــتى لكتـــاب العـــالم الجليـــل أ.د ***محمـــد محمـــد العـــزب*** "***شعرية المفارقة***" وقد حدثته فى هذا فشجعنى على ارتيـــاد هـــذا المجال وتطبيق ذلك فى مجال القصة. وأذكر أنى قلت له :-" أليس فى قراءة الشاعر لشعره مفارقة ؟ وكان رده ما سجله فى مقدمـــــة كتابه من تنوير عندما قال:-(سمها قراءة أنانية هذه التى أمارســـها فى شعرى، أو سمها ما شئت فإنى أجوس فيها دروباً شيدتها بخيالى وحبرى،وأتعرف فيها على نبضى وعلى تجربتى التى قد لا يجيـــد الإنصات إليها كثير من الآخرين).

وكان هذا التنوير إجابة لتساؤلى.

فإليه أهدى هذا البحث .

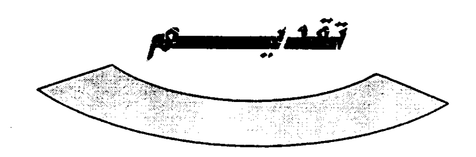
إلى العالم الفنان الإنسان الأستاذ الدكتور / **محمد أحمد العزب .**

بعض عطائه لى،،

د. عبد الناصر محمد السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديــــــم



"الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد"

فهذا بحث عنوانه:-

" المفارقة فى قصة عبد الحميد جوده السحار "

(وكان مساء) أحاول فيه إن شاء الله إلقاء الضوء على المفارقـــة كمصطلـــح تناوله بعض الكتاب فى محاولة لتأصيله أو تطبيقه أو تعريبه.

وقد حرصت على أن يرشح النص العربى قاعدته ومصطلحه، إيمانا منى بأن كل لغة لها رموزها ودلالاتها الخاصة التى ينبغى أن يخـــرج مـــن أكمامـــها المصطلح لا أن يطبق المصطلح عليها تطبيقا تعسفيا .

وغير خاف علينا جميعا أن تطبيق المصطلحات الوافدة من خارج اللغـــة على لغتنا العربية وأدبنا العربى على وجه الخصوص قد ظلم اللغة والأدب علـــى وجه الخصوص والقصة على وجة أخص.

ومن ثم فقد كان اختيارى لقصة "*وكـــان مســـاء*" تجريبـــا وتعريبـــا للمصطلح وكانت هذه القصة بالذات لاعتماد بنائها على المفارقة.

ومن الله أستمد العون والسداد

أميـــــــن

المفارقـــة

ترجـم الجـزء رقـم ١٣ مـن " موسـوعة المصطلـح النقـدى بعنوان " *المفارقة*" فى أوائل عام ١٩٨٣ م، ثم ترجم الكتاب إلى العربيـة مرة ثانية سنة ١٩٨٧ م وقد أرخ المؤلف للمفارقة، متحدثا عـن المفـاهيم المختلفة لها، وتطور هذه المفاهيم من بداية التاريخ الإبداعـى والنقـدى الإغريقى، وحتى عصرنا الحديث فكلمة "*مفارقة* " تظـهر فـى بعـض ترجمات كتاب الشعر، لتقابل كلمة ارسطو (*انقلاب الحال*) التـى تفيـد انقلابا مفاجئا فى الظروف. وربما كانت هذه الكلمة تؤدى بعـض معنـى المفارقة الدرامية. وكلمة مفارقة التى كانت تشير أول الأمر إلى نمط مـن السلوك، تعود لتفيد استعماله اللغة بشـكل مخـادع، وأصبحـت صيغـة بلاغية : الذم بما يشبة المدح، أو المدح بما يشبه الذم. ولا تظـهر كلمـة المفارقة فى الإنجليزية حتى عام سنه ١٥٠٢ م، ولم تدخل فى الاسـتعمال الأدبى العام حتى بداية القرن الثامن عشر، وتطورت بشـكل بطـئ جـدا وأهملت المعانى للأكثر طرافة، وكانت المفارقة طريقة فى معاملة خصـم أو جدال، أو خدعة لفظية فى جدل بأكمله، ثم صار ينظـر إليـها صيغـة بلاغية بالدرجة الأولى خلال ما يزيد على مئتى سنة. لقد صـار تعريـف الكلمة : قول المرء نفيض ما يعنيه " أو " أن تقول شيئا وتقصد غـيره، أو أن تمدح لكى تذم، وتذم لكى تمدح.

وميويك فى تتبعه لمفهوم المفارقة حتى منتصـف القـرن الثـامن عشر، يشير إلى اعتماده على كتب فى المفارقة قد سبقته، ويحيل القـارئ

إليها [١] ثم يشير ميويك إلى تلك المعانى اللاحقـة للمفارقـة، وإذا كـانت المفارقة فى السابق مقصودة ومؤثرة، اصبح ينظر إليها على أنـها شـئ يمكن أن يكون غير مقصود، شئ يمكن ملاحظته وتصبـح المفارقـة ذات طبيعة مزدوجة، فهى مؤثرة جينا، وهى يمكن ملاحظتها حينـا أخـر [٢] وبعد التتبع التاريخى من ميويك لمفهوم المفارقة وتطور هذا المفهوم، يعود إلى تشريح المفارقة والحديث عن خصائصها الجوهرية والمتغيرة، ثم يختم كتابه بالحديث عن ممارسة المفارقة فى المسرح والرواية.

والكتاب بهذه الصورة يمكن أن يكون - كما يرى أستاذنا الدكتـور محمد العزب - مرجعا تاريخيا لتطور مصطلح المفارقة، كمـا أن تـردده على عديد من التحولات والتسميات والاستقطابات، تغنى فى مجال تأسـيس المصطلح عن كثير من التأليف التى تشير إليها مجرد إشارة ضمنيـة، أو تفصل بعض التفصيل الأتى الذى يضيئها من هنا أو هناك [٣].

وتكتب نبيلة إبراهيم بحثا عن " المفارقة " سنه ١٩٨٧ م [٤] تعتمـد فيه على " ميويك " وغيره فى التاريخ للمفارقة، وتؤصل للمفارقـة علـى مستوى الإبداع العربى " تراثينا " عند الجاحظ وغيره، فقد أحـس بلغـاء العرب بخصوصية الكلام الذى يراوغ ويهرب من تحديد المعنى، أو يقـول شيئا ويعنى شيئا أخر، ومن هنا كان كلامهم عن التهكم والشعرية ولطـائف

---

(٢) المفارقة : ميويك صــ٣٠

[٢] المفارقة صــ٣١

[٣] شعرية المفارقة : أ.د / محمد احمد العزب طبعة ٢٠٠٠م

(٣) مجلة فصول : المجلد السابع. العدد ٣،٤ صــ١٣١

القول، والمدح بما يشبه الذم والذم بما يشبه المدح إلى غير ذلك من الفنـــون البيانية التى تقوم على التلاعب باللغة على نحو خاص)[٥].

وفى قراءة تفارقيه للتراث سلطت الضوء علـــى نمـــوذج للجـــاحظ باعتباره صانع المفارقة الأول فى التراث العربى وان لم يدرس من هـــــذه الزاية، ويظهر الجاحظ فى هذا النموذج غير (متحيز لموقف أو لقيمـــــة أو شخص، بل هو مراقب للظاهر ومسجل له بدقة على نحو ما يدور حولـــه، ولكنه إذ يفعل هذا يمهد الطريق للقارئ لكى يزيـــــح معـــه الغطـــاء عـــن الظاهر، فيرى ما يستقر تحته من متعارضات ومتناقضات على المســـتوى الواقعى والكونى [١]، وتصل التراث بالمعاصرة فى بحثها فتسوق النمـــوذج تلو الآخر، متحدثة عن صانع المفارقة، وقـــارئ المفارقـــة، باعتبـــار أن القارئ اصبحا شريكا للمبدع فى صنع المفارقة، مع الأخذ فى الاعتبـــار أن المفارقة تحتاج إلى قارئ خاص (... فإذا كان من المسلم به أن لكل نـــص قارئا، فإن المفارقة تحتاج إلى قارئ متميز، إذ من الممكن أن يكون القارئ ممثلا لقراء كثيرين فى كثير من الأعمال الأدبية، أما فى المفارقة فإن كـــل قـــارئ يتمـــيز عـــن غـــيره مـــن حيـــث مقـــــدار مـــــا يستكشـــــفه مما يخبئه له النص) [٢].

ويتحدث الدكتور محمـــد العنـــانى عـــن المفارقـــة، وذلـــك فـــى كتابه " ***النقد التحليلى*** " سنه ١٩٩١ م فيتناول المفارقة فى الشـــــعر، مـــع

---

(٤) مجلة فصول : المجلد السابع. العدد ٣،٤ صـــ١٤٠

(٢) المرجع السابق صـــ١٣٧

[٢] المرجع السابق صـــ١٤٠

تأكيده على ان الشعر العربى غنى بنماذج لا تحصى للغة المفارقة، ويطبق على قصيدة المتنبى :-

عيد بأية حال عدت يا عيد　　بما مضى أم لأمر فيك تجديد

مؤكدا على المفارقة الشعورية فى موقف المتنبى من العيد. (١)

ويأتى كتاب الدكتور ***محمد أحمد العزب*** "***شعرية المفارقة***"، لينطلق فيــــها من العبور فوق التسميات المفارقية التى استقاصها ميويك، إلى المفارقـــــة على المستوى العربى، بهذا النص المصطلحى، مؤكدا على أن المفارقـــــة كمصطلح لم تفرض حلولها علـــــى الســـاحة الإبداعيـــة والنقديـــة كمـــا ينبغى، وان ظلت كامنة كمدن البذرة فى عديد من المصطلحات التـــى لـــم يستطع واحد منها فقط ان يستوعب معانيها، ويدل عليـــها دلالـــة شـــاملة، فظلت قاســـما مشـــتركا بيـــن عديـــد مـــن المصطلحـــات :- ***كالكنايـــة والتورية***"، والمدح بما يشبه الذم، والذم بما يشبه المدح، والتعريض التـــى تقترب بقدر ما تبتعد عن جوهر المفارقة الحقيقى) (٢).

وفى محاولة لاستجلاء طبيعة النظر النقدية العربية إلى المفارقـــــة يتوقف الدكتور محمد العزب عند دراسة رائدة فى هذا المجـــــال، وتـــأتى ريادتها ليس لأنها طليعة القول فى المفارقة على الصعيد العربـــى، ولكـــن لأنها طليعة القول (الكلى) فى المفارقة على الصعيد العربى، وإن كـــانت مصادرها ومظانها تأتى وانما من هنـــــاك وليـــس مـــن هنـــا، ألا وهـــى

(٢) النقد التحليلى. د / محمد العنانى صـــ٤٩. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٩١ م

(٢) شعرية المفارقة صـــ١٥٤

دراسة (كمال أبو ديب) فى كتابه (فى الشعرية) [٣] ويؤكـــد الدكتـــور محمد أحمد العزب على أن دراسة عربية للمفارقة فى الشـــعر العربـــى، ينبغى أن تتبع من النص الشعرى العربى أولا وأخيرا. لأننا عندما نشـــتق فهما نقديا للمفارقة فى الشعر العربى المعاصر من واقع النص الشـــعرى العربى المعاصر، تكون قد عّربنا المصطلح نهائيا [١]. وحتـــى لا يكـــون الحديث عن المفارقة مجرد حديث عن مصطلح مجرد، يضمنـــه دراســـة تطبيقية شارحة لكثير من إبداعاته الشعرية. ويشير الدكتور خالد ســـليمان أربعة أبحاث عن المفارقة، أولها " فى نظرية المفارقة، والثانى : دراســـة لتقنية المفارقة فى شعر محمود درويش، والثالث دراسة للمفارقة فى رواية نجيب محفوظ، "***حضرة المحترم***" والبحث الرابع تحت عنوان : المفارقـــة والمسرح "***طقوس الإشارات والتحولات***" لسعد الله ونوس : نموذجا[٢]

<u>* المفارقة فى الرواية :-</u>

يشير د.س. ميويك إلى أن طبيعة الروايـــة تحتـــم توليـــد المفارقـــة ويشرح هذا موضحا أن باطن الحياة وظاهرها قد اصبحـــا علـــى خـــلاف كامل، "***فالبطل لا يستطيع تحقيق دافعه الداخلى أن يستخرج من عالمـــه معنى، أو أن يقيم هويته***. فكل ما قد يصيبه من نجاح...سوف يتحقق انـــه وهمى منقوص ومن هنا جاءت طبيعة الرواية التى تحتم توليد***المفارقة***" [٣]

---

(٣) المرجع السابق صـــ١٥٨

(٢) المرجع السابق صـــ١٥٥

[٢] مجلة كلية دار العلوم : العدد ٢٧ صـــ٣٦٩

(٣) المفارقة : د. س. ميويك. صـــ١٠٦

وإذا كانت طبيعة الرواية تقوم على صنع المفارقة بين ما هو كـــائن وما ينبغى أن يكون، أو بين ما يرغبه الإنسان وبين ما يحصل عليه، فـــإن المفارقة فى الرواية تأخذ أهم عناصر الرواية، فقد تـــأتى المفارقـــة فـــى الحدث وقد تأتى المفارقة بالنسبة للشخصية، وقد تكون المفارقـــة تركيبيـــة تشمل بناء القصة كلها، وقد تأتى المفارقة لفظية.

**** مفارقة الحدث :-***

وتتفجر المفارقة من الموقف ذاته أو من الحدث نفسه، " يقدم شـــاب على بيع ساعته ليشترى أمشاطا لشعر زوجته الطويل، لكنها كـــانت قـــد باعت شعرها لتشترى لزوجها سلســـلة لســـاعته " [١] وان كنـــت أرى أن المثال هنا للمفارقة قريب جدا، لدرجة اعتباره مفارقة لفظية وان جاءت فى صورة حدث، ولو مثلنا لـــــه بمثـــال مـــن القصـــة الفتـــى بيـــن أيدينـــا " ***وكان مساء " لاخترنا هذه المفارقة :-***

- سنذهب نجوس خلال الأسواق، هيا.

فقلت له :-

- ألا ترى أن نرتدى بدلنا حتى تسهل حركتنا ؟

فقال فى إنكار :

(٢) المفارقة : دى. سى. ميويك صـــ٩٧

- لا.. لا. هذا لا يجوز. إننا بعثة سعودية فعلينا أن نبدو دائما فى الثـــوب العربى. وارتديت ثوبى العربى وخرجت إلى قاعة الاستقبال، فـــألفيت بعض زملائى السعوديين يرتدون الثياب الإفرنجية.[٢]

فالمفارقة التى ساقها " ميويك " تبدو واضحة وقريبة الفـــهم إلـــى درجـــة التناقض اللفظى فقط.

ولو سقنا مثالا آخر تبعد فيه المفارقة درجات نسوق هذا الموقف :-

"ودنا منى رجل اصغر غزير الشعر، ابيضت لحيته، وكان بياضها أنصـــع من بياض ثوبه المغبر، واخذ الرجل يتكلم وينظر إلى السماء ويشير إلـــى صدره، ولم افهم كلمة واحدة مما يقول، ولكن فهمت تدرسلات عينيه، كـــان يلتمس منى أن أدعو الله له ليشفيه من مرضه الذى أكى صـــدره.أشـــفقت على الرجل وارتبكت قليلا، ولكنـــى لـــم اكـــن قـــادرا علـــى أن أخيـــب رجاءوه، فوضعت يدى على صدره، وقرأت الفاتحـــة وأنـــا أرنـــو إلـــى السماء، وكل حواسى تبتهل إلى الله أن يشفيه. كنت صادقا فى ابتـــهالاتى، أحسست حرارتها فى قلبى، حتى إننى كدت أن أتوسل إلى الله بدموعـــى، وغبت عن كل ما حولى، و اندحت فى الكون كله. وأفقت مـــن شـــرودى على ضحكة عقيل، فالتفت فرأيته يهرع إلـــى ســـامى والرفـــاق ويشـــير إلى. ووقفوا جميعا ينظرون، ويصنعون أيديهم على بطونهم ويتمايلون وهم يقهقون ورفعـــت يـــدى عـــن صـــور الرجـــل الـــهزيل فطفـــق يتمتـــم بكلمات، وملامح وجهه تعبر عن حقيقة مشاعره، وكان يشكر لى دعـــائى.

---

[٢] وكان مساء. عبد الحميد جودة السحار صـــ١١١

وانصرف الرجل الساذج الذى آمن أن كل من يأتى من الأراضى المقدسة مقدس وقد انبسطت أساريره وقويت روحه وعمر قلبه بالأمل بعد أن كان خرابا قفرا، فقد ساق اليه حسن طالعه رجلا صالحا من البلدة الطيبة. أه لو درى أننى لست من الأراضى الطاهرة، وأننى حديث عهد باللحية والثياب التى خدعته " (١).

نرى المفارقات تتفجر فى هذا الحدث، فالرجل الساذج يحسب أن كل من يأتى من الأراضى المقدسة فهو مقدس والدعاء منه مقبول، والحقيقة أن عقيل وسامي والرفاق، وان كانوا قد أتوا من الأراضى المقدسة فهم غير ذلك، وهذا الذى اختاره الرجل الفقير ليدعو له، ليس من الأراضى المقدسة، ولكنه رجل صالح، حمدا لله أن وقف الفقير انه ليس من الأراضى المقدسة. هذه المفارقات هى صورة من مفارقة الحدث. ومحاولة وضع الأنموذج للمفارقة من النص العربى له قيمه كبرى فى مجال تعريب المصطلح (على أن النص حين يرشح قاعدته يصبح نصا أصوليا قادرا على تأسيس رؤية فنية ونقدية أولا، ثم يصبح مغامرة مستمرة ترفض التقولب فى شكل نهائى، ويطوع بلا توقف كل الأشكال لارادته الإبداعية ثانيا، ثم وهذا هو المهم، حيث نشتق فهما نقديا للمفارقة فى الشعر العربى المعاصر من واقع النص الشعرى العربى المعاصر نكون قد عرّبنا المصطلح نهائيا) (١)

---

(١) وكان مساء : صـــ١١٢

(٢) فى النص الشعرى الحديث، وقرأة فى أنانية المفارقة. د / محمد أحمد العزب صـــ١٥٥

• **مفارقة الذات (الشخصية) :-**

وتأتى مفارقة الذات فى الرواية كثيرا وفى صور مختلفة، فقد تـــأتى صورة الشخصية تلك التى كونتها عن نفسها متعارضة مع الصورة التـــى يتيح العمل للقارئ تكوينها [٢]. وقد تكون تلك المفارقة بصورة أوسع حيث تكون الصورة المغلوطة التى كونها الشخص عن العــــالم الـــذى يســـكنه متضاربة مع العالم الحقيقى [٣]. وقد تصل المفارقة الذاتية إلى بنية الرواية فتعرض انقلابا يتصف بالمفارقة على نطاق بنائها الشامل، يدرك البطل فى الرواية انه قد حقق شيئا يختلف تماما عما كان يقصد تحقيقـــه،أو تنتصـــر الظروف الاجتماعية، لتبرهن على أنها اقوى من مقاصد البطل[٤].

والمفارقة فى الرواية تركز على الشخصية، وعلى الحيـــاة الداخليـــة لتلك الشخصيات.

وذلك إذا فهمنا أن الرواية هى الشكل الذى تلجأ اليـــه لفـــهم وجـــود اجتماعى فى إطار من الذاتية، ويقصد بعبارة وجود اجتماعى فى إطار من الذاتية، الإشارة إلى ثنائية الحياة الداخلية والخارجية، مما يؤدى إلى مجـــال الملاحظة التى تتسم بالمفارقة.[٥]

---

(٢) المفارقة : دى. سى.ميويك صـــ٩٨
(٣) المرجع السابق صـــ٩٩
(٤) المرجع السابق صـــ١٠٠
(٥) المرجع السابق صـــ١٠٤

المفارقة البنائية :-

وهى مفارقة تركيبية تشمل بناء القصة كلها، تسيطر فيـــها المفارقـــة على الشخصيات والأحداث، وعلى البناء كله...

المفارقة اللفظية :-

والمفارقة اللفظية هى انقلاب فى الدلالة، ويتمثـــل فـــى مجـــاورة شخصية معجبة بذاتها مع شـــخصية أخـــرى لا تشـــارك الأولـــى نفـــس الشعور [٦] ويمكن ان نتصور وجود الأضرار المتجاورة مـــن المفارقـــة اللفظية، ونتحدث عن مفارقة أخرى تتاثرت أمثلتـــها بكـــثرة فـــى قصـــة "***وكان مســـاء***" وهـــى مـــا ألمـــح إليـــها "***ميويـــك***" عندمـــا تحـــدث عن "***مفارقة الأفكار***" وضرب لها مثلا بالتناقضات الداخلية الخفيـــة فـــى نظام فلسفى مثل الماركسية [٧] وإذا كنا بصدد تعريب المصطلح من خـــلال الأمثلة الفعلية الموجودة فى أدبنا العربى، فإن مفارقة الأفكار فـــى الديـــن مثلا لا تعنى التناقض فى جوهر الدين، ولكنها تعنى خلالا فى فـــهم هـــذا الدين، أو خلالا فى تطبيقه، وربما كانت مفارقة فـــى العـــادات والتقـــاليد تخضع لهذا المسمى "***مفارقة الأفكار***" أيضا. ***ولذا قسمنا المفارقـــة فـــى قصة " وكان مساء " إلى :-***

(١) مفارقة ذات ـ أنموذج شخصيته

---

(٦) المرجع السابق صـــ٣٢

(٧) المفارقة : ميويك صـــ٣٤

(٢) مفارقة أفكار وينضوى تحتها مفارقات فى الدين، وفى اللغة وفـــى العادات والتقاليد والثقافة

(٣) مفارقة حدث.

(٤) مفارقة لفظية.

(٥) مفارقة بنائية.

قصة " وكان مساء

من النقاد الذين كتبوا عن عبد الحميد جودة السحار، الكاتب فؤاد دوارة فى كتابة : "*فى الرواية المصرية*"، فتناول قصته "*وكان مساء*" وقصته "*الحصاد*" وقصته جسر الشيطان" وذلك ضمن سبع وثلاثين قصة تناولها بالنقد، لثلاثين من كتاب القصة فى مصر وسوريا والسودان.

وقد أشار فى بداية حديثة عن قصة "*وكان مساء*" إلى سلسلة المصادفات التى وقعت فى حياة الكاتب، والتى أكد عليها فى بدايـــة القصـــة، ومنـــها زواجه، فقد احب فتاة إيرانية تعيش فى مصر مع أهلـــها، واختفـــت تلـــك الفتاة، وتزوج غيرها، وسافر للعمل فى السعودية وذهب إلـــى الباكســـتان ضمن وفد تجارى سعودى، وهناك تعرف على فتاة أعجب بها وذهب معها إلى بيتها لتكون المفاجأة، فأم هذه الفتاة هى التى احبها فى شبابه. والكتـــاب وان كان يصور رحلة الكاتب إلى السعودية وباكستان، وهو ليـــس كتـــاب رحلات من النوع الجاف، وانما هو عمل فنى متكامل ونرى فيـــه العـــالم والأشخاص والإحداث من خـــلال نفـــس الـــراوى المفعمـــة بالمشـــاعر والأحاسيس، يصور فيه الواقع، ويلونه، فيوزع الأضواء والظـــلال علـــى

نواحيه، ثم ينقض هذا الواقع من زاوية إنسانية عريضة[١] على أن السحار لا يخلو من ميل إلى العبث وقدره عليـــه وميـــل اكـــبر لمداعبـــه النـــاس ومشاغبتهم وهذا الميل إلى العبث والمداعبة للذات والحدث واللغة، كشـــف لنا عن تلوين الشخصيات التى يصورها، والتناقض الموجود فـــى داخـــل الشخصية وعناصر الفساد فى أنماط الحياة التى يعرضها [٢]، والتى يلفـــت النظر، ان فؤاد دوارة، وقد كتب هذا النقد صـــ١٩٥٩ م قد أشار إلى تلـــك المفارقات اللفظيـــة التـــى تشـــيع فـــى قصـــة "***وكـــان مســـاء***" وذلـــك عندما قال :- "***وفى أسلوب الكاتب بعد ذلك تلك المداعبات والمفارقـــات اللفظية التى تعبر عن ذلك الميل النفسى فيه [٣] بالإضافـــة إلـــى الميـــل النفسى عند الكاتب لصنع هذه المفارقات***"، فقد ساعد موضوع القصة بمـــا فيه من بيئات مختلفة، مصر والسعودية، والباكستان، وشخصيات القصـــة لاختلاف بيئاتها الاجتماعية وثقافاتها وفكرهـــــا، وكذلـــك كـــان اختـــلاط الحضارة بالبداوة فى فترة الستينات، بيئة القصة التى أخترتها، كل ذلك قـــد ساعد على إفراز مفارقات على مستوى الشـــخصيات والأحـــداث وبنـــاء القصة. فإذا أضفنا إلى ذلك تلك المفارقة الفنية التى افتتح بها الكـــاتب أو المؤلف قصته، والتى بدأها بالحديث عن المصادفات التى وقعت له هو فى حياته، وهى أحداث حقيقية وقعت للمؤلف على مسرح الحياة، ثـــم اكمـــل

---

[١] فى الرواية المصرية : فؤاد دواره صـــ٤٨ دار الكاتب العولى للطباعة والنشر

[٢] المرجع السابق صـــ٤٩

[٣] المرجع السابق صـــ٥٠

قصته، ونتج عن ذلك تلك المفارقة الفنية التى جاءت على لســــان البطــل وحياة المؤلف، مما دفع اغلب النقاد إلى محاسبة المؤلف على الآراء التــى جاءت على لسان البطل على أنها أرائى، " ***حتى أن بعضهم كــــاد يجـــزم بأننى كنت على وشك أن اهجر بيتى وأبنائى لأتزوج " ياســـمين " ابنــه السبعة عشر ربيعا*** " [١]

**** ملخص القصة :-***

تدور أحداث القصة حول خبير مصرى،يسافر إلى السعودية للعمـــل هناك، ويصف هذا الخبير مشاعره وأحاسيسه عند مغادرة الوطن، وعنــد دخولــه الســــعودية، ويصـــف أحوالــــها فـــى ذلـــك الوقـــت (تقريبا بعد سنه ١٩٥٦)[٢]، ويرجع بالذاكرة إلى الوراء ليحكى لنا قصـــة داخل القصة عن حبه لفتاة وهيامه بها، وغياب هذه الفتاة بعد زواجها مـــن شخص آخر ويذهب الى الباكستان، فيصف لنا رفاقه فى الرحلة وســلوكهم ويصف لنا باكستان ولاهور ومشاهداته فيها، ومقابلته لفتاة فى سن ابنتــه وتعلقه بها، وذهابه زيارتها فى بيتها، ومقابلته أمها فإذا هى نفـــس الفتـــاة التى أحبها فى مطلع شبابه. ليكتشف أن تعلقه بتلـــك الفتـــاة كـــان تعلقـــا بماضيه، وحنينا لحبه الضائع المفقود.

---

(٢) هذه حياتى : عبد الحميد جودة السحار صـــ٣٩

(٢) لمناقشة العدوان الثلاثى على مصر سنه ١٩٥٦ م، على انه حديث الناس فى ذلك الوقت

مفارقة الذات :-

* الأنموذج :-

ويسوق ***عبد الحميد جودة السحار*** مفارقاته من خلال نموذجين فـــى قصة وكان مساء،

النموذج الأول : (الأمر بالمعروف) :-

إنه ليس شخصا وإنما عدة أشخاص، أو هو نظام معين هدفه الأمـــر بالمعروف ومنع المنكر، والحليولة دون الاعتداء على المجتمع أو مفارقـــة المجتمع للآثام، ومعاقبتهم على ذلك.

والمفارقة فى هذا النموذج قائمة على التناقض بين ما هو كائن وبيـــن ما ينبغى أن يكون، بين ما وضع له وما استخدم فيه، بين النظرية وتطبيـــق هذه النظرية، بين وظيفة هذا الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر، والـــذى يفترض فيه هو نفسه أن يكونَ نموذجا للدعوة إلى الله، فإذا به يحول هـــذا العمل إلى وظيفة آلية ليس بينه وبينها آيه علاقة روحية، فمرة يصحبنـــا المؤلف إلى هذا الذى يحشر الناس حشرا فى المسجد ليعبدوا الله، فيقـــترب منه وهو ينادى فى الناس :- الصلاة صلوا الله يفتح عليكم، ***ويقترب منـــه ويدور هذا الحوار:-***

وأنت : ألا تصلى ؟

أصلى بعد أن انتهى من المرور فى السوق.

لن أصلى إلا معك.

وسار وأنا إلى جواره. وما قطعنـــا بضعـــة أمتـــار حتـــى ضـــاق بى، فالتفت إلى وقال : – "***ستفوت على نفسك ثواب الجماعة*** "

وأنـــــــــت :" ألا نعود إلى المسجد حتى لا يفوتك الثواب "

فقال فى صوت مشوب بالغضب :– " لا يزال أمامى مرور "

فقلت فـــــى إصـــــــــــرار : – " وأنا معك ".

وانطلقنا وعرجنا إلى مفارق جانبية، ***وهو يصيح فى التجار والمارين :–***

" الصلاة، الصلاة يا ولد ".

وفر الجميع من أمامه كأرانب مذعورة، وتدفقوا على المسجد، وطاف بخاطرى أن بعضهم على الصلاة دون وضوء.

وفاض كأس صبره فعبث فى لحيته ثم قال :

بالله يا عمى اذهب فقلت فى إلحاح : ***وأنت ؟ فقال فى صوت خافت :–***

استمر فى عملى الذى أعول منه أولادى.

آه ! هذه وظيفة ! مهنة.

فقال وقد نفذ صبره :-

" شغل – شغل ـ روح الله يحنن عليك [١] "

فى هذا الموقف الساخر الضاحك الباكى فى آن تتبعـــثر المفارقـــات المفردة لاهية عابثة فى الموقف كله. من ذلك قولـــــه :- "***كنـــت ذاهبـــا لأصلى، ولكن ذلك الأمر بالمعروف جعلنى أتلكأ*** " فرجل مهمته الحث على الصلاة، صارت مهمته أن يجعل الرجل يتلكأ عن الصلاة، لأنه يكــوه أن يساق إلى العبادة. وهو الآمر بالمعروف المفروض أن يسير علـــى الأرض هونا فإذا به يمشى (منتفخ الأوداج مرفوع الرأس راضيا عن نفسه بعد أن حشر الناس ليعبدوا الله) ولكن المفارقة النصية تأتى فى نهايــــة الحــوار لنكتشف أن هذا الأمر بالمعروف الذى يحـــث النـــاس علـــى العبـــادة، لا يصلى، وكان بإمكانه أن يصلى هذه المرة اتقاء لشر هذا المتطفـــل الـــذى أصر على فضيحته، ولكنه لم يستطع حتى أن يصلى هـــذه المـــرة، وراح يتوسل اليه أن يتركه، فهو لن يصلى، وهو يأمر الناس بالصلاة لأن هـــذه هى وظيفته، يأمر الناس بالبر نفسه، ويؤكد على هذه المفارقة فـــى نهايـــة النص بقولة "***شغل... شغل.. شغل. روح الله يحنن عليك.***

وينقلنا المؤلف إلى موقف آخر للآمر بالمعروف، الواقف على حـدود البلاد ليمنع دخول الشرور إليها، (وفتشت تفتيشا دقيقا، وقد فطنـــت مـــن أسئلة الآمرين بالمعروف، أنهم يبحثون عن اسطوانات أو شرائط مســـجلة

[٢] وكان مساء :صـــ٣٢

أو آلات عرض سينمائية، أو كتب غـــير مرغـــوب فيـــها أو تمـــاثيل أو زجاجات الخمور)[٢]

ثم ينقلنا فى لحظة أخرى بقوله (وانسابت السيارة بنا، وأدير الراديو، وانبعث صوت المغنية ناعما حنونا يغنى " ***حبينا بعضنا*** " فـــالتفت خلفـــى ارقب المطار وأنا ابتسم فى، وتمنيت أن أعود إلى " ***الآمـــر بـــالمعروف*** " الذى انفق وقتا طويلا فى التنقيب عن اسطوانات أو شرائط مســـجلة فـــى حقائبى واسئله عن الحكمة فى ذلك، إذا كانت جميع أغانى العـــالم الجـــادة والماجنة يحملها الراديو إلى الناس فى سياراتهم وبيوتهم، بل إلى العـــذراء فى خدرها) [٣]، وهنا تبدو مفارقة أخرى،ولكنها هذه المـــرة تـــأتى مـــن الخارج وليس من الداخل، فالآمر بالمعروف يؤدى عمله المناط به خـــير قيام، ولكن عنصرا خارجيـــا يجـــهض هـــذا العمـــل، ويجعلـــه مفارقـــة ساخرة، فإذا عات العالم تبث تلك الأغانى التى يجهد الآمـــر بـــالمعروف نفسه فى الحليولة دون دخولها البلاد. ولا تتوقف المفارقات، وهو يتحـــدث عن محل لبيع الصحف ذاع صيته، لأن العمود الذى تقام عنده الحدود قـــد أقيم أمام هذا المحل، ومع ذلك ومع أن الحدود تقام أمام هذا المحـــل، إلا أنه يبيع (أكداسا من الكتب الفرنسية والإنجليزية والإيطاليـــة)، (وقلبـــت بعضها بين يدى وتصفحتها فألفيتها كتبا جنسية رخيصة لا همّ لها إلا إثـــارة الغرائز المنحطة).

---

[٢] وكان مساء : صـــ١٦

[٢] وكان مساء : صـــ١٧

وقلبت المجـــلات الأجنبيـــة فـــبرزت علـــى صفحتـــها الصـــدور الناهدة، والأفخاذ العارية، والأرداف الممتلئة البضة....مجلات تجد ســـوقا رائجة بين المراهقين من الشباب والشيوخ على السواء،وما أكثر الشـــيوخ الذين قابلتهم، واكتشفت على الرغم من الزوجات والحريم أنـــهم يكـــابدون الحرمان. لقد دعانى شيخ إلى مشاهدة شريط مصرى فى داره، وبعـــد ان انتهينا من مشاهدته شاء أن يبالغ فى إكرامى، فراح يعرض شريطا فرنسيا تقع حوادثه فى المخدع بين رجل وامـــرأة، وتقـــززت نفســـى وامتـــلأت اشمئزازا، وشعرت بالغثيان، بينما طفق الشيخ يتـــأوه ويتلـــوى، وراحـــت عدسة ذهنى تقترب من وجه الآمر بالمعروف، الذى اخذ ينقب فى حقـائبى يوم وصولى عن الكتب الفاجرة واشرطة التسجيل، وأشرطة السينما)[١] .

والمفارقة هنا متمثلة فى وجود هذه الصحف والمجلات الخليعة، أمام العمود الذى تقام عنه الحدود، فإقامة الحدود علنا الغرض منها زجر الناس وتخويفهم، ومع ذلك فصاحب الدكان لم ينزجر، ولم يرتـــدع. والمفارقـــة الثانية هو وجود هذه المجلات والشـــرائط الفاضحـــة وانتشـــارها بـــهذه الصورة، وإذن ففيما يجهد الآمر بالمعروف نفسه على حدود البلاد ؟

ويرسم المؤلف صورة أخرى لتطبيق الآمر بالمعروف لوظيفته فـــى جمود وصرامة، تخرج العمل إلى الخلل والخلل الفادح والفاضح، وذلـــك من خلال مواقف عديدة موسومة بالمفارقة، ***من ذلك*** :-

---

[١] وكان مساء : صـــ٥٩

(وبلغت دكان المصور فوجدت زحاما، ولمحت أحد الآمرين بـــــالمعروف يقود المصور أمامه ومعه امرأتان من أفريقية. كان المصور فى الســــبعين من عمره والمرآتان سافرتان، وجهاهما أسود من فحمة الليل، وقال الآمـــر بالمعروف إنه وجد المصور والمرأتين فى خلوه).

وقال الشيخ وهو يرتجف فرقا :-

- جاءتا تتصوران لاستخراج جواز السفر.

فقال الآمر بالمعروف فى زجر :

– كنتم فى الدكان وحدكم ليس معكم إلا الشيطان.

وساقهم أمامه وهو شامخ برأسه، والشيخ والمرآتان يتلفتون بعيون زائغـــــة فى وجوههم هلع، فالآمر بالمعروف إذا قال فلا مرد لقوله) [٢].

ونلاحظ المفارقة فى " ***المصور فى السبعين، وامرأتان من أفريقية وليـس امرأة واحدة، وفى مكان ليس فيه شبهه، فهو مكان تصويـــر، وجهـــهما اسود من فحمة الليل*** "، والمصور يقول :- " ***جاءتا تتصوران لاســتخراج جواز السفر، والآمر بالمعروف يقول فى زجر : كنت فى الدكان وحدكـــم ليس معكم إلا الشيطان، والآمر بالمعروف إذا قال فلا مرد لقوله*** ".

ويختم لنا المفارقة فى نموذج الآمر بالمعروف، عندمـــا يـــرى الأصدقـــاء يشربون الخمر ويعبونه دون رقيب، وقد ضبط السائق اليمنى وسجن وجلـد لشربه الخمر فيعلق قائلا (وشردت فملئت صورة السائق اليمنى القمـــىء صفحة ذهنى والسياط تهوئ على. واستشعرت امتعاضا، أوقعته المصادفـة

(١) وكان مساء :صـــ٦٧

السيئة فى يد أمر بالمعروف قد يكون مما يشربون فـــى اطمئنـــان دون أن يخشى بطش زملائه الآمرين بالمعروف) [٢].

ونلاحظ أن نموذج الآمر بالمعروف مملوء بالمتناقضات والمفارقات مـــن الداخل ومن الخارج فهم يقفون على الحـــدود لمنـــع دخـــول الشـــرائط، والصحف والمجلات والإذاعات تدخل على العذراء فـــى خدرهـــا، وهـــم يأمرون بالمعروف وينسون أنفسهم، وهم ينفذون القانون علـــى الضعفـــاء دون مراعاة ظروفهم، والقادرون يحمون أنفسهم من عين الرقيب أو الآمـــر بالمعروف.

* أنموذج التابعة :-

شغلت الخادمة أو التابعة التى اصطحبها بطل القصة معه فى رحلـــة إلى السعودية حيزا كبيرا من الحديث فى القصة، فقد تناولها بالحديث فـــى الصفحـات ١٢، ١٣، ١٤، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٥، ٦١، ٦٦، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ١٢٩، مع أنها ليس لها أى دور فى بناء القصة، ولكنه كـــان مغيبـــا برسم صورة لهذا الأنموذج الذى يظهر الإيمان والتقوى والقناعـــة، وهـــو مملوء من داخله بالمتناقضات التى تجعلنـــا والمفارقـــات نضحـــك مـــلء أشداقنا، ثم نتوقف عن الضحك فجأة، إنه لا يرسم صورة للتابعة بقدر مـــا يرسم أنموذجا بنا جميعا.وهو برسم صورة لها من أول لحظة وهو علـــى متن الطائرة فيقول (ونظرت إلى التابعة العجوز فألفيتها تصفّ صنـــاديق

[٢] وكان مساء : صـ١١٠

الورق المقوى ومـــا بقـــى بـــها مـــن طعـــام تحـــت قدميـــها)، ***فذهبـت إليها وقلت لها:***

- لماذا لم تتناولى طعامك ؟

فقالت وهى ترفع بصرها إلى سقف الطائرة :

– الحمد بالله: صائمة. أشكرك يا رب على القناعة التى وهبتها لـــى، إننى لا أهتم بالأكل. آكل لقمه بدقة وأحمد الله) [١].

ولا ينسى فى غمرة هلعه من هبوط الطائرة، وتخوفه من المجــــهول المقدم عليه ان يلتقط التابعة وهى (تحمل صناديق الورق المقوى التى كان بها طعامها وما تبقى من الأولاد فى حرص شديد)[٢] ثم بعد ذلـــك يتنقـــل معها وهى تحادث الطاهى (والعودة من عنده وهى تخفى بعض اللفــــائف فى طيات ثيابها، وكانت تتناول الطيبات فى غفلة منا، فإذا ما قدمنا إليـــها الطعام أقسمت بأغلظ الإيمان أنها شبعانة وحمـــدت الله علـــى القناعـــة)[٣] ويلمحـــها وهـــى خارجـــة مـــن الفنـــدق فـــــلا يفوتــــه أن يرســـم صـــورة "***كاريكاتوريـــة*** " لـــها وهـــى تتمـــايل لا بســـــبب ضعفـــــها وشيخوختها (ودلفنا إلى السيارة وانتظرنا التابعة، فجاءت تتمايل وهمـــت بدخول السيارة، وهى حريصة على ما فى جيوبها، فقد ملأهــــا الطـــاهى

---

(١)وكان مساء صـــ١٣

(٢)وكان مساء : صـــ١٤

(٣) وكان مساء صـــ٤٨

بالحلوى)[٤] ، وليس هذا هو التناقض الموجود فى أنموذج التابعة، وهـــو الشره وادعاء القناعة ولكنه يضيف اليـــه تناقضـــا آخـــر، فـــهى تغتـــاب الناس، ثم تنطلـــق لعبادتـــها (وتحدثـــت فـــى إســـهاب عـــن الجـــيران جميعهم، وذكرت دقائق حياتهم، وسخرت من أغلبهم، وحـــددت مرتبـــات الرجال وهوايات النساء، ولما يمضى عليها فى البيـــت ســـاعات، بـــدأت تمارس نشاطها، وهى قديرة غاية القدرة ان تستل من الأطفال الأســـرار، وأن تدفع الرجال والنساء إلى نبش أسرار الآخرين، ولو أنصفها زمانـــها لكانت دعامة من دعائم المخابرات. وانتهت من اغتياب الناس، ثم دخلـــت غرفتها وأغلقتها عليها حتى لا يشغلها الأولاد عن تعبدها)[٥]

ونلاحظ المفارقة فى تلك التى تغتاب الناس من ناحية، ودخلت غرفتـها وأغلقتها عليها حتى لا يشغلها الأولاد عن تعبدها من ناحية ثانية. وهنـــاك مفارقة ساخرة من هذا المجتمع الذى اســـتطاعت هـــذه المـــرأة العجـــوز ولما يمضى عليها ساعات فى المسكن الجديد أن تعرف كل هذه الأســـرار وأدق الأسرار، وأن تدفع الرجال والنساء إلى نبش أسرار الآخرين.
وخصلة أخرى موجودة وهى استدرار أموال الناس بطريقـــة أو بـــأخرى (والتابعة العجوز لا هم لها إلا الجلوس على بـــاب العمـــارة، واســـتدرار عطف الصاعدين والهابطين بكلامها المعسول لينفحوها بعض الريـــالات، أسرار الناس من الخدم والبوابين الحضارمة والأطفال، وما كانت تدخـــل

---

(٤)وكان مساء : صـــ ٥٠
(٣)وكان مساء :صـــ٥٦

الشـقة إلا لتغلـق بـاب غرفتـها عليـها وتهملـــه فـــى العبـــادة وتستغرق فى الصلاة) [1]. ولا مانع عندها من نفاق النـاس وسـبهم فـى الخفاء ومدحهم فى العلن لسلب نقودهم (ورن جرس البـاب الخـارجى، فقامت زوجتى وذهبت تفتحه، وتمددت فى سريرى شارد الذهـن، وقـرع أذنى صرير قفل الباب، ***ثم صوت التابعة وهى تهدد*** :- الله يجازيـه، الله لا يكسبه، الله لا يمتعه بشبابه. ***وقالت زوجتى*** :- مـن ؟ - محمـد أفنـدى. وصمتت لتثير فضول زوجتى، وقالت زوجتى :- ماذا فعل ؟ - أمه قـالت لى كل شئ.... قالت إنه سـبها. الله لا يكسـبه... لا يريـد أن ينفـق عليها.. الله يجازيه) [2]

ثم ينقلنا فى لحظات خاطفة فإذا التابعة نفسها تحادث هذا الرجل الذى كانت تسبه - فى ود لتستدر عطفه بكلماتها (وبلغت باب العمـارة فوقـع بصرى على التابعة على بعد خطوات، تحادث محمد أفندى فى ود، ***وقـرع أذنى صوتها وهى تقول له :***

- الله يجعل دعائى من نصيبك، والله إنى أدعو لك ليلا ونهارا.

ومد المخدوع يديه فى جيبه وأعطاها خمسة ريالات) [3]

ولا ينسى المؤلف أن يطلعنا على مفارقة فاجعة للتابعة، وهـى فـى السبعين من عمرها وتريد أن تتزوج، وتدخر الفاكهة والشيكولاتة والطعـام الجاف لهذا الزوج المزعوم (فقالت متفتحة النفس وقد انبسـطت تجـاعيد

---

(١) وكان مساء : صـ٦١

(٢) وكان مساء : صـ٦٦

(٢) وكان مساء : صـ٦٦

وجهها، وانفرج فمها عن أسنانها السليمة وإن تخطت السبعين -الحاج داود السائق ببنك مصر عرض على أن نتزوج، قال لى إنه لا يملك مهرا، وأنـا لا املك شيئا، ولكن ما كـــان ذلــك ليمنـــع زواجنـــا... ســـأتزوج، والله لأتزوجن... ماذا فعل لى أولادى ؟ وأخـــذت أرصـــد حركـــات المـــرأة الفانية، فوجدتها قد انقلبت فتاة مراهقة، تحرض الأولاد على النزول حتـــى تنسل منهم وتجلس إلى الحاج داود تمضى الساعات الطويلة فى مناجاتـــه، وطفقت تدخر الفاكهة التى نقدمها لها والشيكولاتة والطعام الجاف، وتقـــول إنها تتصدق بما لا تأكل، ولكننى لمحتها أكثر من مرة تخفى هذه الأشـــياء فى طيات ثيابها وتعطيها للحاج داود) [١]

ولعلنا يذهب بنا الفكر كل مذهب فى تصرف هذا الرجل، وماذا يريده من امرأة فى السبعين فقيرة، ثم نكتشف أنه كان يريد طعامها وطهيها لـــه، ويفجعنا المؤلف بتلك المفارقة فى قوله (.... لم يكن طالب زواج، ولكنـــه طامع فى الخيرات التى تتسرب من يدها إلى فمه، وكان يطمـــع فـــى ان تطهو له ما يشتهى، ولقد تقوض ركن من الأركان التى كان يشرئب اليـــه بعنقه، وستهديه حصافته إلى أن الركن الأخر لا شك منقوض إذا مـــا تـــم الزواج، فما كانت زوجتى لتعطى من تركتها وأولادها فواكه وشـــيكولاته وطعاما يسيل له لعاب الحبيب المشرف على الستين) [٢]

---

[١] وكان مساء : صـــ٧٦

[٢] وكان مساء : صـــ٧٦

وقد نتصور أن هذه شخصية التابعة، وأن هـــذه الصفـــات تخصـــها وحدها ولا ترقى إلى مستوى الأنموذج الذى تتجسد فيه المفارقات، ولكـــن المؤلف لا يتركنا لتصوراتنا، ***وإنما يؤكد على أنها نموذج موجـــود فـــى البشر. وذلك عندما يكتشـــف صديقـــا لـــه فـــى رحلتـــه يشـــبهه مـــن قريب أو من بعيد :-***

(وقع بصرى على بقايا طعام وقشر موز، فإذا بصورة التابعة تقفـــز إلى ذهنى، كان ممدوح من نفس طرازها، يأكل خفية ويدعى أمام النـــاس انه لا يأكل وأن لا شهية عنده حتى يتقى الحسد).

يا طالما قاسيت من التابعة، كانت تنساب إلى الجيران وتحدثهم عـــن الثواب الذى أعده الله للمحسنين وتظل تزين لهم الإنفاق حتى يعطوها ممـــا عندهم أو يدسوا فى يدها ورقة من فئة الريال أو بعض أوراق، وهى تتمنع تمنع الراغبات، تطبق يدها على ما به وهى تؤكد أنها لا تأخذ شيئا لنفســـها بل تنفقه فى سبيل الله.

وكانت تكدس الخيرات تحت سريرها، كان فى صندوقها موز وتفـــاح وبرتقال وسمك ولحم محمر وبطاطس وحلوى من صنع الشـــام، وكـــانت تقوم فى الليل تأكل مما جمعت، فإذا ما اصبح الصباح وقدمنا لها الإفطـــار أقســـمت أغلـــظ الإيمـــان أنـــها لا تـــأكل وأنـــها تعيـــش علـــى الكفاف، ***ثم تقول :-*** أسالوا فلانة وفلانة وفلانـــة. وكـــانت تنطلـــق إلـــى الطريق وتخبر كل من يقابلها أنها لا تأكل، وأن الله قد أنعم عليـــها بنعمـــة

القناعة، وكانت فى المغرب تغلق بابها عليها لتصلى فتهتبل هذه الفرصـــــة وتخف إلى ما تحت السرير وتملأ بطنها، فإذا حان وقت العشاء ووضعنـــا أمامها الطعام تعيده إلى المطبخ وهى تقسم بالله العظيم إنـــها لـــن تـــأكل، وتستمر فى حديثها عن عدم رغباتها فى الأكل وعن القناعة التى أنعـــم الله عليها بها بصوت عال جدا ليبلغ حديثها أذان الجيران جميعا.

اكتشفت الساعة أن ممدوحا من طرازها، ولكن ممدوحا يشترى مـــا يأكله بعيدا عن أنظار زملائه أما هى فتحتال على الجيران حتى يعطوهـــا رهبة من لسانها أو رغبة فى الثواب الذى تجيد الحديث عنه. كنت أظـــن حتى اللحظة أن التابعة نسيج وحدها، فإذا بها نموذج لأمة من الناس)[١]

المفارقة فى الشخصية

المفارقة فى شخصية "مصطفى" :-

والمفارقة فى هذه الشخصية تبدو من ذلك النوع الذى تنتصر فيـــه الظروف الاجتماعية لَتبرهن فى النهاية على أنها أقوى من مقاصد البطـــل. فتأثير العادات الاجتماعية على تلك الشخصية جعلها شخصية مبنية أساســـا على المفارقة، بداية من شكله، الذى لا يتناسب أبدا مع وجاهته الاجتماعيـــة لأول وهلة(رجل أسود مفلفل الشعر مضعضع العينين فى وجهه شـــعرات سوداء متناثرة) [١]هذه الصورة لا تعطى انطباعا للوهلة الأولى بأنه مـــن كبار تجار مكة، ولذلك لما أشار الخبير المصرى للمضيفـــة علـــى هـــذه

---

(١) وكان مساء : صـــ١٣٠
(١)وكان مساء صـــ٨٣

الشخصية بأنه أغنى أغنياء مكة، كان ردها(....لا يبدو أنه عربى. هل هـو عربى؟)[٢]

وليس سواد الوجه بعيب، ولا يشكل مفارقة، و لكن المؤلف يكشـــف لنا عن أغوار نفسية مصطفى، فهو يضـــع أدوات تجميـــل كثـــيرة علـــى وجهه، وود لو انتزع هذا الجلد الأسود وفرّمنه، وفى ليلة من الليـــالى راح مصطفى يطيل النظر فى المرآة ويسأل زميله:- هل حقا بشرتى ناعمـــة ؟. فيرد عليه ناعمة يا عبد، وكانت هذه الكلمة هى مبضع الجراح الذى نكـــأ الجرح الغائر فى أعماق النفس، ليكشف لنا مصطفى أنهم باعوه فعلا بيـــع العبيد. باعوه هو وأمه. فقد كانت عادة البيوتات الكبيرة إذا بلـــغ الشـــاب الحلم زوجوه جارية ليصونوه، فإذا ما بلغ مبلغ الرجال زوجوه من فتاة من أسرة تتكافأ مع أسرته، وتبقى الزوجة الأولى فى البيت تدبر شئونه وتسهر على أبناء زوجها من الزوجة الثانية. وكان جدّه من سراة مكة ولمـــا بلـــغ أبوه الرابعة عشـــرة مـــن عمـــره زوجـــه مـــن جاريـــة، (... زوجـــه من أمى، كانت جارية، وقد تحررت بهذا الزواج وإن ظلـــت أمـــة وفيـــة لزوجها [١] ومن هنا نلمح المفارقات الاجتماعية، فالمجتمع يزوج الفتـــى إذا بلغ الحلم من أمة، لا ليزوجوه بل ليصونوه، فإذا بلغ مبلغ الرجال تـــزوج زواجا حقيقيا، وبعد أن ولدته أمه تحررت، وإن ظلت أمة، تحـــررت وإن ظل المجتمع ينظر إليها على أنها أمة، وهى تبقى لتخدم أولاد زوجها مـــن

(٢) وكان مساء صـــ١٥٤

(١)وكان مساء صـــ١٣٩

زوجتها الثانية، فهى زوجة وليست لها حقوق الزوجية، وهـــى تحـررت بإنجاب الولد ولكنها أمة.

(وذات يوم أطلقت الزغاريد فى بيتنا، وجاء الطهاة وأضيئــت الأنــوار... وعلى الرغم من صغر سنى انقبض صدرى... استشعرت أن شيئا قد تبدل ولم أجد أبى،... وذهبت ألعب فى البيت فوجدت امـــرأة غريبـــة بيضـــاء حسبتها ضيفة ما تلبـــث أن تعــود إلــى دارهــا، ولكنــها بقيــت فــى بيتنا، وأحسست بغريزتى أن سلطانها فيه يفوق سلطان أمـــى... وحــدث حادث عظيم فى بيتنا أقيمت له الأفراح، لقد أنجبت زوجة أبى ولدا) [٢]

مفارقات متتالية، المرأة البيضاء يحسبها ضيفة، وسلطانها أقوى من سلطان أمه فى البيت، وحدث عظيم أقيمت له الأفراح،لقد أنجبـــت زوجـــة أبيـــه ولدا، يا لها من مفارقة محزنة، ***وهو:*** أليس بولد؟ أليس ابنا لأبيه؟ (وراحت أمى تحمل الوليد وترعاه وكانت تضعه فى حجرى أحيانا، وتقول لى إنـــه أخى، وتوصينى بحبه، وكنت أعجـــب لأخـــى هـــذا فقــد كـــان أبيــض البشرة، بينما كانت بشرتى سمراء... كانت غريمتها بيضاء البشرة، ولكــن قلبها أسود من الليل البهيم[١]. من المفارقات أن توصى المـــرأة الســـوداء ابنها على أخيه، وتوغر المرأة البيضاء صدر ابنها علـــى أختـــه، المـــرأة البيضاء قلبها أسود من الليل البهيم، يا لها من مفارقة !

---

[٢] وكان مساء صـــ١٤١

(١)وكان مساء صـــ١٤٢

وتأتى مفارقة قدرية أخرى، فهم من سراة مكة ويمضون الصيف فـــى الطائف شأن سراة القوم، وفى يوم من الأيام أغارت جنوّد من نجد علـــــى الطائف وقبضوا على أمه وعليه وبلغوا سوقا لبيع العبيـــد فبـــاعوه وأمـــه بدراهم معدودة. وبلغ أبوه ما حدث فذهب إلى الملك وعاد العبد وأمه إلـــى البيت. وتلك مفارقة قدرية كانت سببا فى أن يباع الأحرار كعبيد، وتظـــل الجارية والعبـــد وســـواد الوجـــه جرحـــا غـــائرا فـــى نفســـه، ومـــات الأب (... وجمعت اخوتى وقلت لهم إننى وإن كنت أكبرهم إلا إننـــى أدع لهم أن يقرروا ما يرون، وأنا قابل كل ما يحكمون به وتقضت أيـــام وهـــم يتشاورون، ثم جاءوا إلى وعرضوا على ما استقر عليه رأيهم، وقبلت فـــى الحال، على الرغم من أنهم جاروا علىّ، وكان جورهم بينـــا. فضلـــت أن يقول الناس ظلم، من أن يقولوا ظلمهم ابن الجارية. وصمت قايلا ولاح فى وجهه أنه قد بذل جهدا فى نطق جملته الأخيرة... أراد بنطقها أن يقنعنـــى أنه لا يخجل من أصله، ولكن كل جارحة فيه كانت تعبر عن الألم الدفيـــن الذى يقاسيه) [٢]

وهنا لا يترك المؤلف لنا فرصة نتصور فيها أن هذا الرجل قد شـفى من مرضه أو برأ من علته، وصار لا يخجل من أصله، او مـــن ضغـط المجتمع عليه ونظرته اليه، بعد أن نطق بجملته الأخيرة "*ابن الجارية*". لا يتركنا المؤلف نتوهم ذلك مجرد توهم، ولكنه فـــى صنـــع سلســـلة مـــن المفارقات حول مصطفى، فهو إذا دخل إلى الحمام لا يغتسل كمـــا نفعـــل،

---

[٢] وكان مساء صـــ١٤٤

ولكنه يطلى جسمه كله بالمراهم والأدهـــان والمســاحيق ليبيـض جلــده الأسود، (... وكنت أعدّ زجاجات التجميل المصفوفة علـــى رف الحمـــام وأبالغ فى عدّها وهو يضحك وفى وجهه رضا، وإن كان لسانه يستنكر مـــا أقول استنكار من يطلب منى المزيد [1] ويقول فى مفارقة أخرى مبالغة فى تزين مصطفى (وما أدرانى ؟ تزوجت من عشرين سنة، ولم أجـــد عنـــد زوجتى ما وجدته عنـــدك مـــن مراهـــم وأدهـــان ومســـاحيق وســوائل للتجميل. . .) [2]

ولذلك فقد ظل مصطفى باحثا عن العطف وفقط طوال رحلته، لقـــد عطفت عليه المضيفة فتبـــدل شـــخصا أخـــر، يصفـــه المؤلـــف بقولـــه (... ولمحت مصطفى قادما فتفرست فيه فـــأذهلنى التبـــدل الـــذى طـــرأ عليه، بدا العينى شابا متفتحا يستقبل الحياة باسم الثغر تملأ الآمال العراض صدره) [3] ماذا يريد من المضيفة لا شئ، لقد أحس بالسعادة تغمـــره لأن هذه الإنسانة تركت كل الوفد وأعجبت به هو(أعطتنى عنوانها ولكنى لـــن أذهب– حرام ان تحطم قلبها. - أنا رجل أحب أن أشرب وأضحك ولا شئ غير هذا)[4]

وظل مصطفى باحثا عن ذاته التى ضاعت وسلبت فـــى يـــوم مـــن الأيام، ولذلك تبدو المفارقة واضحة جلية فـــى وجـــود مصطفـــى وعـــدم

(١)وكان مساء صـــ١١٨
(٢) وكان مساء صـــ١٢٠
(٣)وكان مساء صـــ١٥٦
(٤)وكان مساء صـــ١٥٨

وجوده، فى إحساسه بنفسه وعدم إحساسه بها، فلا عجب أن نـــراه يؤكـد وجود هذه الذات طوال الوقت (وأدرت عينى فى المكان، فألفيت مصطفى وقد انفرد برجل من الباكستان والحديث يتدفق من فمـــه، كـــان يســره أن يتحدث عن ذاته ويتلذذ بسماع صوت نفسه) [١] وهو فى مطـــاردة بيــن شخصية العبد وشخصية الوجيه يحاول دائما أن يدس نفســـه فـــى زمـــرة العظماء، ويسهب الحديث عن هذه الزمرة (... أما مصطفى فكان ينفلـــت وحده، يذهب للقاء الوزير، ويمضى معه الليل السرمد، فالوزير لا ينام قبل الفجر أبدا، انه يمضى الليل مؤرقا).

وكان مصطفى عند عودته يوقظنى من نومى ويأخذ فى سرد ما قالـه الوزير وما قاله للوزير، وفطنت إلى أن مصطفى يجد لذة فـــى ان يـــدس نفسه فى زمرة العظماء، وأن يسهب فى الحديث عن النوادى التى يشـــترك فيها، وعن المجتمعات الراقية التى يغشـــــاها، ويتحـــدث بالفرنســـية، ولا يخاطبنى إلا بالإنجليزية التى ينطقها نطقا فرنسيا، كان فى نفسه شئ)[٢]

المفارقة فى شخصية الخبير المصرى :-

وتبدأ المفارقة من أول لحظة فى القصة، فأنت لا تـــدرى هـــل يكتـــب المؤلف قصة، أم هى مذكرات شخصية، فهو يحكى رحلته هـــو وزوجتـــه إلى السعودية للعمل بها، ويرجع إلى الوراء ليحكى أحداث حياته هو ومـــا فيها من مفارقات قدرية، واختلطت الحقيقة بالقص لدرجة أن بعض النقـــاد

---

(١)وكان مساء صـــ١٠٠

(٢) وكان مساء صـــ١١٧

كتب وقتها أن قصة "*وكان مســاء*" تــروى فــترة مــن تــاريخ حيــاة المؤلف، ويعلق المؤلف على ذلك بقوله :(... وهم معذورون فــى ذلــك، فبطل القصة مصري عمل فى الســعودية، وأنــا مصــرى عملــت فــى السعودية، وسافر البطل إلى الباكستان مع بعثة سعودية،وقد سافرت إلــى الباكستان مع بعثة سعودية، وارتديت الثياب العربية وأطلقت لحيتى، ومــا دام هذا التشابه موجودا فلا بد أن تكون جميع الأحداث والشخصيات التــى تضمنتها القصة حقيقية)...ويؤكد فؤاد دوارة على هذه المفارقة، أو الخلـط بين شخصية المؤلف وشخصية البطل *بقولـــه : (وســواء فــى حديـث الرحلة، أو فى قصة الحب التى تتخللها)* : لن تحتاج إلى جهد كبير لتدرك أن الكاتب إنما يسجل فترة حقيقية من حياتـــه، ويرســم أحداثــا عايشــها وأشخاصا واقعيين التقى بهم، ويعبر فى الوقت نفسه عن آرائه وانطباعاتــه وتأملاته الذهنية إزاء ذلك كله٠ ونتيجة لذلك تحس بعد أن تنتهى من قراءة الكتاب أنك قد أصبح اكثر قربا من "*عبد الحميد جودة السحار*"، وأنك قــد تعرفت إلى كثير من صفاته وأخلاقه وآرائه وأسلوبه الذى اختاره لنفسه فى الحياة) [1]

وهذه أول المفارقات فى شخصية الخبير المصرى واختلاطها بشخصية المؤلف

ومما يتصل بهذه المفارقة، مفارقة أخرى وهى إضفاء كل خبرات المؤلــف فى الحياة على تلك الشخصية التى يتقمصها، فـــإذا هـــى خبــيرة بكــل شئ، ومتحكمة فى كل الخيوط ومعلمة لكــــل الشــخصيات التـــى تـــدور

---

(١)فى الرواية المصرية : فؤاد دوارة صـــ٤٩. دار الكاتب العربى

حولها، (تجسيد الذات فى شخصية واحدة) وقد أخذ علـــي المؤلــف هــذا المأخذ فى كثير من قصصه. [٢] وفى هذه القصة يتحدث فـــى كــل شـــئ تحدث الخبير(... **وقال عقيل وهو يضحك** : والله لقد حيرتنى أنت خبــــير اقتصـــادى، أم خبــير فـــى الديـــن، أم خبــير فـــى التـــاريخ، أم خبـــير فى الجنس؟) [٣] وهى مفارقة موضوعية [٤]

وتأتى المفارقات القدرية لتقلب حياة هذا الخبير رأسا على عقـــب، ففى الوقت الذى ينوى فيه التقدم لخطبة فتاة أحلامه،يدبر فيه القدر موقفـــا أخر تراه فيه فتاته مع صديقة أخته يحادثـــها مغتبطـــا، فحســبته يعبــث بعواطفها،وتزوجت من أحد أقاربها [٥].

ويبالغ فى مفهوم العبادة لتأتى المفارقة فى هذه المبالغة، فإذا كـــان رفاقه يشربون الخمر ويصلون، فإن هذا العابد لا يرى العابد عـــابدا إلا إذا انغمس فى الحياة وان يصون نفسه، (... أذكـــر أننـــى حمـــدت الله مـــرة

---

[٢] فى قصة " جسر الشيطان " يلاحظ فؤاد دوارة على شخصية المهندس غرابة الأطوار، فهو يحفظ صورا من القرأن، واسسحاحات من العهد القديم، ويتحدث فى فلسفة الأديان والحياة كما يتحدث كامهر واعظ مستنير. فى الرواية المصرية صـــ٥٧

(٣)وكان مساء صـــ٢٧

(٤)استعمل هذا المصطلح بهذا الشكل الأخوان (شلكل) وكذلك (كارل زولكر) واخارون. يقول : (اكو ست فيلهلم شليكل) أن اكثر الدرامين يجسدون ذاتيتهم الخاصة فى شخصية أو وجهة نظر، يفترض فى الجمهور انه يتعاطف معها. المفارقة : صـــ٣٨.

[٥] وكان مساء صـــ١٣٤

وسبحت له وآنا فى الكباريه.) ***فقال وهو يضع يده على كتفـــى :-*** آنـــت عابد مودرن. فقلت له وآنا ابتسم : بل قل: عابد مطبوع) [١]

وهذا العابد المطبوع يصول ويجول بين النساء،ويعتبر مغازلة النساء نوعـا من العبادة (... وقفت اصلى فى خشوع، كانت الغرفـــة مظلمـــة، وكـــان السكون يلف بيت الضيافة فى لاهور، فقد كان الزملاء جميعهم يغطون فى النوم، حتى يستطيع السهر فى الليل.

وفتح باب غرفتى وأضئ النور، ***ولما سلمت وآنا اختـــم صلاتـــى لمحـــت مصطفى ينظر إلى وهو يبتسم ثم قال :-***

-أنت مخير، من يراك وأنت تصول وتجول بين الحسان يقسم انـــك زيـــر نساء، ولا احسب أن هناك من يصدق إنك عابد متبتل. لماذا ؟

-كيف يمكن أن تجمع بين المتناقضين، الصلاة ومغازلة النساء فى جرأة.

-لا ادرى أى تناقض فى ذلك، إن مغازلتى للنساء نوع من العبادة.

-بالله دع الهزر مرة وكلمنى كما أكلمك.

-هذا ليس هزرا هذا نوع من التصوف، إننى لا أومـــن أن العبـــادة فـــي مقاطعة الناس والاعتكاف فى صومعة، ولا اعتقد أن قصر اليـــد أو عـــدم القدرة، أو موات الحركة ضرب من التعفف، أن التعفف الحـــق أن تكـــون قادرا، وان توفر لك السبل ثم تترفع لذلك تجدنى أسير فى الطريق، حتـــى إذا ما كدت اشرف على نهايته كبحت جماح نفسى وعدت أدراجى.

-هذه تجربة محفوفة بالمخاطر، هذا لعب بالنار) (٢)

---

(١)وكان مساء صـــ٢٤٦

(٢) وكان مساء صـــ١٦٩

وهذه مفارقة مبينة على المغالطة وعلى عدم فهم الدين فهما صحيحا، وقـد لمح المؤلف هذا التناقض، فراح يرصده ويتأمله ويشير اليه فـى قصيدة وذلك فى قوله (... وانصرفوا وبقيت وحدى فإذا بى استشـعر أننـى قـد تبدلت، صرت رجلا أخر لا يعرف العبث ولا الهزار، وذا باللسان الـذى ينطق الفواحش فى يسر، يدور فى حلقى، ويعكف على تسبيح الله والقلـب خاشع والدمع فى العين يترفرف، وحان وقت صلاة العشاء فقمت اصلـى فى اطمئنان، ثم اندسست فى فراشى وأسلمت جنبى للرقاد. هل أنا صاحب شخصيتين ؟) [1]

*وشخصية الخبير المصرى مولعة بالطعام وان كان لا يرى ذلـك عـن نفسه، وملابسة الجديدة عليه تمنعه من الآكـل بحريتـه، وتجعلـه يـأكل بحذر، كان كم الثواب الواسع يعوقه عن أن يمد يده ليتناول صنفـا بعيـدا عنه، وكثيرا ما سقطت العطرة فى الأوانى الموضوعة وعندما يسأل مـاذا ستفعل الليلة يقول آكل واشرب ثم أنام [2]

وعندما يدخل حفلة رسمية ويدعى إلى المـائدة، (وتنـاولت صفحـة وملعقة وسـكينا وشـوكة..... وشـغلت بالطعـام عمـا حولـى، ولمـا امتلأت...) [3]

وتأتى مفارقة أخرى فى شـخصية الخبـير، عندمـا يعجـب بفتـاة صغيرة، وهو الهادئ الرزين الذى يعيب علـى الآخريـن جريـهم وراء

---

[1] وكان مساء صـ١٧٣

[2] وكان مساء صـ١٨٣

[3] وكان مساء صـ١٨٥

الفتيات تشغل هذه الفتاة فكرة، ويروح يتزين بها*(...وانقضى الوقت وحان موعد ذهابنا إلى معرض الخيل، فتأنقت فى ارتداء ملابس العربية، وخطـو لى أن أدعو سامى ليفحصنى قبل أن اذهب، ويســـتوثق مـن أن حلقتـى الشطاف الأسود قد وضعتا فوق العطـــرة كمـا ينبغـى. كنـت أضيـف بملاحظاته، ولكننى اليوم متلهف عليها،لولا بقية مـن كبريـاء لأسـتدعيه والتمست منه أن يتفضل بتنسيق هندامي. ووقفت لأول مرة طويـلا أمـام المرآة منذ بدء الرحلة، وكددت الشعرات البيض المتســللة إلـى لحيتـى صفوى برهة، فاتجهت إلى حقيبتي وأحضرت المقص الصغير، ورحــت اجتث الشعرات البغيضة، ولما اختفت من لحيتى ارتحت لذلك التزييف)[٤] هكذا يتحول الرجل الوقور العائب على الآخرين تهافتهم على النساء، إلـى تلك الصورة التى يعيبها. وعندما يرى الفتاة وتقع عينه عليها، (... التقـت عيوننا وانحنى يأتيانا، ورفت البسمات على شفاهنا، وتألقت البهجـة فـى وجهينا، وخفق قلبى خفقانا لذيذا ملا جوفى حنانا ونشر حول عقلى ضبابـا خفيفا جعلنى فى شبة غيبوبة ذهنية مكنت للنشوة إن تمرح فى كيـانى دون رقيب) [١]

وينتظرهـا علـى أحـرّ مـن الجمـر، ويخـاصم النـوم عينه، (.... وتمددت فى فراشى لعل النوم يطوف بـى، ويريحنـى مـن الساعات الباقية على موعد لقائنا، ولكن خاصم الوسـن جفنـى، وأرهـق

(٤)وكان مساء صـ١٩٤

(١)وكان مساء صـ١٦٩

حواسى، وراحت دمائى تتدفق حارة فى عروقى، واخذ قلبى يرقص بيـــن جنبى فى ابتهاج، فقد عاد اليه شبابه) [٢]

وتفجر هذه المفارقة مفارقات أخرى فى داخل الشخصية، فهو وحيـد يحس بالوحدة وهو بين أهلة وذوية، وبين زوجة وأولاده، وهو معها تمـــلأ الدنيا على وتشعرنى حنانا دافقا وعالما متجددا وأملا متفتحا وخلودا ما لـــه حدود،لقد ولدت من جديد) [٣].

وأخيرا تتوج هذه المفارقات، تلك المفارقة الأساسية وهى أن أم الفتاة التى أحبها هذا الخبير المصرى، والتى كانت إيرانية اســـتوطن أجدادهـا مصر، والتى رأته مع إحدى الفتيات، فغضبت ووافقت على الزواج مـــن إيرانى، وهذا الإيرانى حملها إلى باكستان، وهى التى وجدها إمامة عندمـا زار الفتاة التى تعرف عليها واحبها وتعلق بها فى باكستان،وتأتى المفارقـة فى أن كل هذا التعلق كان بالصورة التى احبها فى الصغر ووجدها ماثلـــة إمامه فى باكستان، وعندما ذهب معها إلى البيت وجد أفاصل، ممثلا فـــى الأم (ومس أذنى نقر خفيف على الباب، فالتفت فإذا بسيدة ترتدى ســـاديا من فضة فى لون الذهب تتقدم، منى فانتصبت وافقا لاستقبالها، ولما دنـت منى قفز قلبى فى صدرى حتى كاد يفر من فمى، وتدفقت الدماء حارة فـــى عروقى وذهبت نفسى شعاعا، كانت مفاجأة لم تخطر لى على بال، فما وقع فى خلدى أبدا إننى سأجد نفسى يوما ما أمام فاطمة وجها لوجه، وأيـــن ؟

---

[٢] وكان مساء صـ٢٠٣

[٣]

هنا فى لاهور.... ومتى ؟ بعد عشرين سنه من الفراق. إن حياتى سلسلة من المصادفات، ولكننى ما كنت أحسب أن المصادفات قد تنجح فى تدبير مثل هذا اللقاء) [1].

وليست صدفة واحدة هى التى صنعت هذه المفارقة، ولكن المؤلف قد شاء لبطل قصته أن يسافر إلى السعودية، وان توطر الصداقة بينه وبين هذه الفتاة دون غيرها، وأن تستجيب الفتاة لهذا الغريب لأول وهلة وتدعوه إلى بيتها لمقابلة أمها، وهى ليست فتاة من فتيات الليل، ولا مضيفة تدبر مال الآخرين، ولا أجنبية تريد أن تصنع علاقات مع رجال الأعمال،فتلك فى حد ذاتها تعد مفارقة من المفارقات.

المفارقة فى شخصية " ممدوح "

خصية تتجلى فيها المفارقة بأقصى صورها، فهو يواظب على الصلاة، وفى الوقت نفسه يشرب الخمر ويفعل المنكرات، (... وسمعت ***ممدوح يقول :*** إلى أين ؟ – إلى غرفتى ؟ لأصلى الظهر، انتظرنى حتى اصلى معك. لا زلت على وضوء – وانتظرته ودخلنا الغرفة معا وأقسمت عليه ان يتقدم ليكون لى إماما، وصلينا، وقضيت الصلاة، وخرجنا إلى غرفة الاستقبال، واقبل الخادم فى يده كاس بها ويسكى وقدمها إلى ممدوح، وغيب ممدوح الكأس فى جوفه وهو يقول : هذا دوائى. انه علاج مجرب ورمقت من صليت خلفة برهة، ثم انصرفت لأعيد صلاة

(١)وكان مساء صـــ٢٢٨

الظهر وحدى) [٢] وتبدو المفارقة واضحة فـــى حرصـــه الشـــديد علـــى الصلاة، ولا يفوق هذا الحرص إلا حرصه على الشراب (... انه يســـتيقظ فى البكرة يغتسل ويصلى الفجر حاضرا. وما كان يفوته الفجر أبدأ، مــــع أننى قلما كنت أصلـــى الفجـــر حـــاضرا، وكـــان لا يجـــد حرجـــا فـــى الشراب، ويجد متعة فى قضاء الليل فى أحضان غانية) [٣] وممدوح يـــأكل خفية ويدعى المرض اتقاء الحسد (ووقع بصرى على بقايا طعام وقشــــر موز، فإذا بصورة التابعة تقفز إلى ذهنى، كان ممدوح من نفس طرازهـــا، يأكل خفيه ويدعى أمام لناس انه لا يأكل، وان لا شهيه عنده حتـــى يتقـــى الحسد) [٤] ومع إصراره علـــى الشـــراب، فـــهو مصـــر أيضـــا علـــى الصلاة (– ممدوح سنذهب أنا وفهد وحسان إلى السينما الليلة، ***هل تـــأتى معنا. فقال فى عتاب :–***

أتظن أننى مجنون حتى امضى ليلة كهذه فى السينما، فان شـــئت ان تصلى العشاء معنا قبل أن تخرج فتعال. ولم يفطن إلى سخريتى ***بل قـــال لى فى لهفة :–" بالله لا تصلوا حتـــى أحضـــر ورحنـــا نرتـــدى الثيـــاب الأوروبية، وحان موعد الصلاة فجاء والإصرار على شرب الخمر، ولكـــن اعتقاده بأنه يصلح إماما يؤم هؤلاء المصلين***".

---

(٢) وكان مساء صـــ١٠٨

(٣) وكان مساء صـــ١١٧

(٤) وكان مساء صـــ١٢٩

*مفارقة الأفكار :-

تحدث ميويك عن مفارقة الأفكار، وضرب لـــها مثـــلا بالتناقضـــات الداخلية الخفية فى نظام فلسفى، وقد وردت مفارقة الأفكار فــــى قصـــة " وكان مساء" تلك المفارقة التى قسمتها إلى مفارقة فى الدين ومفارقة فـــى اللغة، ومفارقة فى الاجتماع ومفارقة فى الثقافة. ومفارقة الديـــن لا تعنـــى تناقضـــا فـــى الديـــن، ***ولكنـــها تعنـــى خلـــلا فـــى الفـــهم وخلل فى التطبيق من ذلك :***

مفارقات فى فهم الدين وتطبيقه :-

ومن ذلك أن بعض الناس يظن أنه لو استخدم وسائل الترفيـــه فـــى العبادة، لما كان للعبادة قيمة، ولا تحوز القبول،(وقد رسم الســـائق خطـــة للحج ميسرة، تجنب فيها شـــدة الحـــرارة والصعـــاب)، فســـخرت منـــها التابعة (فراح اليمنى يحدثها عن الخطة التى رسمها للحج، ***قال :-" نـترك جدة فى التاسع من ذى الحجة صباحا***" ، فنبلغ مكة قبل الحـــر، نطـــوف حول الكعبة، ثم ننفر إلى عرفات، ونجلس فى السيارة لا نغادرها ونبتـــهل إلى الله ونعبده ونحن فى السيارة، ومن عرفات ننتقل إلى منـــى، نمضـــى الليل هناك، فإذا ما أشرق الصباح نعود إلى جده حيث نســـتريح ونمضـــى النهار فى بيوتنا، وقبل المغرب نعود إلى منى نمضى الليل فيـــها، وهكـــذا نفعل فى أيام منى الثلاثة.

فقالت له التابعة :- أهذا حج ؟ أيقبل الحج إذا لم نستقر تحت خيمة ؟ والمطوف والدعاء ؟ حججت ست حجات ولم أر شيئا كـــهذا [(١)] وبعـــض الناس ينظر إلى الملابس الحديثة ويرى أنها كفر، (ووقفنا أمـــام الحجــر الأسود ننوى طواف العمرة، وكانت ابنتى الصغيرة وابنى يضعـــان علـــى رأسيهما " كاسكته" من القماش عليها شجرة الأرز. وأقبل شاب قد أطلـــق لحيته، ولف على رأسه عمامة ولبس فوق جلبابه حاكتة، ***وقال لـــى فـــى غضب :-" انك فى بيت الله الحرام*** ". ونظرت اليه مفتوح العينين والدهش فـــى وجـــهى، لـــم اكـــن ادرى ســـبب ثورتـــه، قـــال وهـــو يشـــــير إلى " ***الكاسكتة*** " : هذا حرام. هذا تشبه بالكفار. ***فقلت له وأنا أشير إلـــى حاكته الصوف التى كان يلبسها فوق جلبابه الأبيض :***

-أكان الرسول يلبس جاكتة مثل هذه ؟ ! وتركنى وانصرف وهو يقـــول فـــى صوت خافت : كويفر [(٢)]

-ويرسم مفارقات عجيبة وغريبة فى الحرم، حيث تتحول المناســـك الدينية إلى تجارة من لدن بعض الناس، (التف المتسولون حولنا، وأردنـــا أن نفك بعض النقود، وتطوع أحدهم أن يؤدى هذه الخدمة، ففك لنا الريـــال بثمانية عشر قرشا سعوديا بينما سعره الرسمى اثنان وعشـــرون قرشـــا). استحل لنفسه عشرين فى المائة ربا علي باب أقدس بقعة [(٣)]

---

(١)وكان مساء صـــ٣٨

(٢)وكان مساء صـــ٤٢

(٣)وكان مساء صـــ٤٢

ونلمح المفارقات اللفظية فى قوله "*تطوع أحدهــم أن يــؤدى هــذه الخدمة* " واستحل لنفسه عشرين فى المائة ربا، وربا فى أى مكـــان؟ فـــى أقدس بقعة.

-ويسوق صورة للعبادة وقد تحولت إلى حرفة وكسب عيش عندمــــا يقول (وأراد الطفل الصغير أن يتم الشعائر وأن يحتم علينا أن نرقى الصفا وان نرقى المروة، لم نكن ذمته قد فسدت بعد. وضايق ذلك الرجل الـــذى يدفع عربة زوجتى فلكز الصبـــى وأشـــار لـــه مـــن طـــرف خفـــى أن "*يكلفت* "حتى تتاح لهم فرصة اقتناص زبائن أخرى، كنـــا لا تزيـــد فـــى نظرهم عن سلعة. ويريد المؤلف أن يقرن هذه المفارقة بمفارقة أخــــرى، فمع أن هؤلاء الذين قابلهم فى الحرم قد حولوا العبادة إلى حرفة، فالوجـــه المؤمن الذى أثرّ فيـــه يـــأتى مـــن بعيـــد، وليـــس مـــن قريـــب، مـــن باكستان (ولمحت أثناء سعيى باكستانيا طالت لحيته، وابيضت شـــعراتها يهرول وفى وجهه ايمان عميق. كان أول وجه قرأت فيه الإيمان بما يفعل، وهزنى منظره فرحت أهرول معه) [1] .

ويضعنا المؤلف أمام مفارقة دينية كبيرة، وهى أننا نفعل المنكـر دون أن نحزن، ودون أن يؤرقنا ضميرنا، فإذا ما انكشف امرنا كانت الغضبـــة الكبرى، *وقد ساق القران الكريم هذه المفارقة وذلك فى قول الله تعالى:-*

---

[1] وكان مساء صـــ٤٤

(*يستحييون من الناس ولا يستحييون من الله وهو معهم*) فأصحابه ورفاقه يفعلون المنكرات دون وازع من ضمير، أو رادع مـــن ديــن، وعندمـــا يكشف أمرهم سفير باكستان فى بيروت، يكون الحزن والألـــم / لا لأنـــهم يفعلون،ولكن لأنهم انكشفوا وبان أمرهم (**وقفت أتحدث مـــع رجــل كبــير فقال لى :-** دعكم من هذه اللحى وهذه العباءات والمظهر الدينى، هذه كلـــها قشور، وأنا اعرف كل ما تفعلونه مع الفتيات فى بيروت.

فقلت له همسا : - وكيف عرف هذا ؟

فقال لى وهو يهز يديه فى يأس :

-إنه سفير الباكستان فى بيروت

وماذا قلت له ؟

- لم أقل شيئا، عقد لسانى وأحسست أننى غريق.

ورأيت أن أهون عليه حزنه ***فقلت له :*** -" لا عليك، كل البلاد فيـــها الصالح والطالح فقال سامى وهو يهز رأسه فى أسى :- والله كشفنا وســار سامى مطرقا حزينا... وعجبت للإنسان يفعل المنكر دون أن يحزن، فـــإذا انكشف أمر ذلك المنكر غضب وثار، سرنا جميعنـــا إســبرطيين نشـــجع السرقة، والويل لمن يضبط متلبسا بها [1] وقد تنتج المفرقات عن عدم فـــهم

---

[1] وكان مساء صـــ١١٤

الدين فهما جيدا، فالذى يقدم الخمر اسمه محمد، ولماذا يقدم الخمر لأنـــه لا يعرف أن الذى يحملها ملعون أيضا.

(فاقترب منى فقلت له : - ما اسمك ؟

- محمد. - مسلم ؟ ! - الحمد لله. أتعرف أن الخمـــر حـــرام، وأن عليك وزر حاملها، وأن مأواك النار، *فقال فى فزع فى إنجليزية ركيكة:-*

وما ذنبى أنا ؟ إننى أومر وعلى أن أطيع.) (٢)

* مفارقات لغوية :-

ويسوق المؤلف مفارقات لغوية فى قصته، منها الاستيلاء على الكلمة الأجنبية والاشتقاق منها كما لو كانت عربية، ومنها أيضا كلمات لا يعـرف أصلها، ومنها حروف تائهة وسط أهلـــها كـــل واحـــد ينطقـــها بصـــورة مغايرة، ويطالب بمن يحرر هذه الحروف.

(فقالت المرأة وهى تضحك ضحكة ناعمة مثيرة :- وويـــن " حـــج الشباب"..وانصرفت أفكر فى حرف القاف المسكين الذى سلبته بعـــض الشعوب العربية شخصيته وضمته إلى مملكة الهمزة، واغتصبـــة شـــعوب أخرى لتضمه إلى مملكة الجيم، إنه حرف مضطهد كالشـــعوب المغلوبـــة على أمرها، تساق إلى هذا المعسكر أو ذاك قسرا لتذوب فيه كمـــا يـــذوب

(١)وكان مساء صـــ١١٩

الملح فى الماء، وخطر لى خاطر، لماذا لا يقوم أحد اللغويين الأحرار ويطالب بحق القاف فى الحياة ؟؟!) [١]

والمفارقة هنا بعيدة نسبيا، فالحرف مضطهد ومسلوب الإرادة والهوية والحرف مغتصب وضائع الهوية، والشعوب العربية هى التى اغتصبت الحرف العربى، والمغتصب بكسر الصاد، والمغتصب بفتح الصاد، شأنهما واحد وظروفهما واحدة، فكلاهما كتب عليه أن تمحى شخصيته ويذوب فى هذا المعسكر دون إرادته ليتلاشى فيه، وهو يذوب فى هذا المعسكر، وكلمة يذوب الملح فى الماء، تعنى الامتزاج فيه والتلاشى فيه، وتعنى الضياع و اللهوية، وكلها مفارقات فجرها استعمال القاف منطوقة بعدة صور فى بلادنا العربية. ويسوق المؤلف مفارقة لغوية أخرى لها انعكاسات ودلالات مغايرة وهى ترك اللغة العربية، ***واستعمال الكلمة الأجنبية والاشتقاق والنحت منها :-*** (–أما من خادم يأتينا "**بجج**" ماء ؟ إن الكلمات الإنجليزية دخلت إلى العربية وامتزجت بها وأصبح يشتق منها وتصرف. ستسمع " (**jug**) وهو إلا بريق، و " غرفة مكندشه " بمعنى مكيفة، و (رود واسع) بمعنى طريق واسع، وأصبح الموضوع (مفنشا) بمعنى منهيا، و (تلهمنى) بمعنى أخبرنى، واشتقت من (**Tell him**)، و(الريل) " بمعنى السكة الحديدية، وتزداد الكلمات الإنجليزية أو الأمريكية انتشارا فى اللغة العربية كلما اتجهت إلى المنطقة الشرقية، ولا أدرى هل الدولار هو السبب أو الحكام الذين كانوا خاضعين

---

(١)وكان مساء صـ٣٠

للورنس، وعبد الله قليبى وجلوب باشا ؟واحتكاك الشعوب وتـــأثر اللغـــات ببعضها أمر لا مفارقة فيه ولا غرابة، ولكن الغرابة والمفارقة فى إســــناد هذا الأمر إلى الدولار، أو إلى خضوع الحكام - وليس الشعوب - لا لدولـــة أخرى - ولكن للورنس، وعبد الله قليبى وجلوب باشا ؟!

ثم يختم هذه المفارقات للبحث عن معنى كلمة يستخدمها أصحابها ولا يدرون أصلها فإذا كانت بعض الكلمات الأجنبية قد دخلت اللغة العربية فما زلنا نعرف معناها وأصلها، فما أصل تلك الكلمـــــة " يـــتروش " ويســـال أصحاب هذه الكلمة عن معناها (" من أين جاءت كلمة " يتروش " ؟

- وقال وهو يضغط على الجرس.

-لا أعرف، كل ما أعرفه أننى أريد أن اشرب.

-وجاء الخادم الباكستانى الشاب، ولما رأى مجدى فطن إلى ما يريد، والتفت إلـــى وقال :-وأنت هل أحضر إلك كأسا [1]

-والمفارقة هنا نتجت من أبناء هذه اللغة الذين لا يعرفون عن اللغة،وإنمـــا الذيـــن يعرفونه هو الشراب،ونلاحظ اقتران أعرف ولا أعرف (لا أعرف، كل ما أعرفه) وكل مـــا يعرفه هو أنه يريد أن يشرب، ويشرب ماذا ؟ يشرب كأسا من الخمر.وهنا تتفجر المفارقـــة لقضية كاملة، قضية شعب ولغة وليست قضية كلمة وأصلها. وهنا تبدو براعة السحار فى توليد المفارقات فى ذهن القارئ - غير العادى - ولا تتولد المفارقة إلا بعد ان يقرأ القـــارئ المعلومة، وينتهى من فهمها ويرفض هذا السطح الأملس الناعم الممـــهد الـــذى فهمـــه، ويروح ينبش عن المعنى الآخر ليصبح شريك المؤلف فى صنع المفارقة.

---

[1] وكان مساء صــ١١٩

المفارقة الاجتماعية والثقافية :-

البيئة التى اختارها المؤلف لقصته هى المملكة العربيـــة الســعودية والباكستان، والزمن الذى دارت فيه الأحداث هو العقد السادس من القــرن العشرين وفى تلك الفترة تدفقت أموال البترول على المملكة، وتدفقت معــها كل ألوان الحضارة والثقافة على تلك البيئة البدوية الصحراوية، ومن هنـــا فقد كانت التربة صالحة لحدوث العديد من المفارقات، منها علـــىَ ســبيل المثال، الاهتمام بالشكليات اهتماما شديدا، مع الاختلاف فيـــها، فــالمؤلف يلبس هذا اللباس الرسمى لأول مرة، وزميله مكلـــف بمراقبتـــه، كـــى لا يرتكب جرما بإخلاله بطريقة ارتداء هذه الثيـــاب. وأن مـا هـــو خطـــأ هنا، صواب هنا أيضا ولا أقول هناك. (... ***وقبل أن أتمّ حديثى جـــاء إلـــىّ سامى وهمس فى غضب :-*** أصلح شطافك. انفرج عقالى، بعدت حلقة عـــن أختها قليلا فلمحتها عين سامى المسلطة علىّ لفضح أخطائى، فمددت يـــدى وضممت الحلقة على الأخرى. ودارت علينا كئوس شراب الليمون، الغرفة بعبارات الترحيب، وخف عقيل إلى، ومدّ يده إلى عقالى، ***وأبعد حلقته العليا عن أختها وقال لى :-***

-شيوخ القبائل لا يرتدون الشطاف إلا هكذا. منظرك رائع الآن وتحـــرك شــيطانى فناديت ساميا وقلت له :

-انظر ماذا فعل عقيل ! فالتفت سامى إلى عقيل وقال فى حدة :-

-ما هذا ؟ ما هكذا يلبس الشطاف !

-بل هكذا يلبس.

-لا يا شيخ. - جميع شيوخ القبائل عندنا يلبسونه هكذا

وجاء فهد بقامته القصيرة الممتلئة وأنفه الطويل ورأيت إدماجه فـــى المناقشة ***فقلت له*** :- اختلفا فى لبس الشطاف، أنضـــم حلقتـــاه أو يفـــرج بينهما ؟ ***فقال فهد*** :- فى المنطقة الشرقية عندنا يفرج بينهما.

واشترك فهد فى المناقشة واحتدم الجدل وان كان همسا، وتعصب كل إلى رأيه وراح يدافع عنه دفاع علماء المسلمين فى العصور المظلمة عـــن رأيه فى المناظرة التى احتدمت فى ذلك الأوان، والتى كانت تدور حـــــول أيهما أفضل ! مكة أو المدينة ؟!) [١] ، فهم مهتمون جل الاهتمام بالشكل، وهم مختلفون على الطريقة، وهم متعصبون كل لطريقته، وإن جاز هذا فى العصور المظلمة فكيف يجوز فى هذا العصر ؟ وإن جاز فى هذا العصـــر من القابعين داخل ربعهم فكيف يقبل من الذين ركبوا الطائرة، وجابوا بـــلاد العالم ؟

***ونكتشف فى مفارقة أخرى أن هؤلاء الذين يعبون من ملذات الحضارة عبـا ويتقلبون فى نعيمها وترفها تتحكم فيهم العادات فى بلادهم وتأسرهم ولا يستطيعون الفكاك منها حتى ولو دمرت حياتهم وأسرهم وحولتهم أشلاء، فالألم النفسى الـــذى يحدث ليلة الزفاف بين الرجل والمرآة، يجعل المرآة تنفر مـــن زوجـــها، والرجـــل يهرب منها إلى خارج البيت .**

---

(١) وكان مساء صـــ١٠٠

(... بالله لا تذكرنى بالزواج - أمرك عجيب. الزواج متعه)

انك لا تعرف متاعب ليلة الجلوة عندنا، واعتدل فى جلسته وقال :-

-تزوج أحد أصدقائى، وما أن أغلق بابه عليه وعلى عروسه لأول مرة حتى ارتفعت أصوات من الخارج تحثه على الإسراع. كانت الفتاة غير محنكـــة، وكانت خائفة ترتجف، فراح يحدثها حديثا ناعما، ولكن الأصوات المرتفعـة كانت تفسد عليه الجو الشاعرى. وصاح صائح :- أســرع، أبوهــا يغـدو ويروح فى قلق ارحمه. وقالت قائلة :- أمها يكاد يغمى عليها، تحرك. ولـم يستطع أن يصم أذنيه عن الصياح المدوى الذى يمزق أعصابه، فهجم علــى العروس يغتصبها، جرت الفتاة مرعوبة منه، وجرى خلفها بعد أن أحس أن كبرياءه جرحت،وقبض عليها، وأم يأبه لأنينها وصراخها وتم له افتراسـها، ثم فتح الباب فتدفق الأهل إلى الغرفة يقصون فى حرص بالغ كل ما لـــوث بالدم، ودوت الزغاريد، واطمأنت النفوس القلقة ليلة، وفى الصباح حملـت العروس إلى الطائرة لتنقل إلى مصر لتجرى لها عملية جراحية، لقد انقلـب الزوج بسبب الصياح والحث والتقريع إلى وحش كاسر.

-اسمع نصيحتى وفر بزوجك ليلة الدخلة. - والتقاليد ؟ - ثر علـــى التقــاليد البالية، هذا أمر يتعلق بك شبابا، مثلك لم يؤمنوا بها فثاروا عليها.

-إننى أكفر بكل هذه العادات المرذولة.

-لو كنت تكفر بها ما قبلتها. إنك تكفر بها بلسانك ولكنك تؤمن بها فى

ضميرك، قد يتحرر الفكر ولكن الروح تظل ترســـف فـــى أغـــلال الرجعية[1]. والمفارقة هنا متماثلة فى هؤلاء الناس الذيـــن خـــاضوا فـــى كظاهر الحضارة وانغموا فيها بخيراتها وشــــرورها، ولا زالــت تتحكــم العادات منهم بهذه الصورة، ويا ليتها عادات خيرة، والمفارقـــة الأخـــرى متروكة للقارى ليقرن بين تمسك هذا الرجـــل بالعـــادات وعـــدم تمســكه بالدين، ففى الوقت الذى يقرأ فيها القارى " انك تكفر بها بلســانك ولكنــك تؤمن بها فى ضميرك" ستقوى فى ذهن القارى فى الوقــت الــذى تؤمــن بدينك بلسانك ولكنك تكفر به فى سلوكك. وهنا يكون القارى مشاركا فـــى صنع المفارقة

ويسوق لنا المؤلف مفارقة ساخرة لانتشار الأفكار والثقافات الكاذبـــة فى هذا القرن الذى تعيش فيه، ومن أميين يعيشون بيننا فهذا السائق اليمنـى يرشدهم إلى تاريخ جده، (... عرفنا تاريخ المدينة منه وهو تـــاريخ ملـــئ بالأخطاء ولا ريب، وقد انطبقت تلك الأخطاء فى عقولنا، ***وما ذنبنا ما دمنـــا لم نجد دليلا غير ذلك اليمنى وقف بنا عند سور ابيض يحيط بخربة واسعة وقال :-***

-هذا قبر أمنا حواء.

-وهل حواء مدفونة هنا ؟

-فقال فى تأكيد :

-نعم.. نعم.. أنها الجدّة.

(١)

-وزادني حديث اليمني حيرة، كنت لا أدري حقيقة اسم المدينة أهو جدّه بضم الجيم أو جره بكسرها ؟ فإذا به يسوق الدليل على فتحها، فيفتح بذلك بابا جديدا لبلبلة أفكاري [1] لا يكفي للأمي أن يصيغ تاريخ المدينة من جديد، بل أن هذه الفلسفة.

التاريخ لتبلبل بمنطقها أفكار المتفق وتزيده حيرة، وتلك من المفارقات الساخرة التي نقابلها كل يوم بين الأمي والمثقف ويكشف في مفارقة أخرى عن استعمار من لون جديد، وهو الاستعمار الثقافي فقد خرج الاستعمار من بلادنا جسدا، ولكنه تغلغل في حنائيا ضلوعنا وفي تلافيق أفكارنا، ثقافة وسلوك ولغة وميول، (... وعرضت الرواية الأمريكية، كانت تدور حول لص باكستاني وضباط بوليس إنجليزي. كان الباكستاني يمثل الخسة والدناءة، يعشق زوجة أبيه، ويعرض الأبرياء من بني وطنه للقتل باسم الوطنية ليتملك، بينما الضباط البريطاني يمثل كفاح في سبيل القيام بواجبة الشريف النظيف، وأحنقني الفيلم الاستعماري، وزاد في حنقي أن الشعب الباكستاني يدق بالتصفيق إذا ما كتب على الديكور بوابة "*بشاور*" أو أي اسم آخر من أسماء المدن الباكستانية.

رأيت بشاور وعشت فيها وتجولت في إنحائها وزرت قلعتها ولم أجد أي شبه بينها وبين ما تخيله المخرج الأمريكي، ولكن مجرد ذكر اسمها في فيلم أمريكي ملون، كان يثير حماسة الجماهير وفخرهم، حتى ولو كان الفيلم استعماريا يسئ إليهم ويجرح شعورهم. ***والتفت إلى زميلي وقلت له: -***

---

(١)وكان مساء صـ٣٤

لو كنت الرقيب الباكستانى لحرقت هذا الفيلم.

وقال زميلى فى أفكار :-

-لماذا ؟ انه فيلم لذيذ.

-اعجب زميلى بالممثلة العارية، وبالحركة فى الفيلم ولم ير السم فـــى الدســـم ونظر الباكستانيون إلى الفيلم الخبيث نظرة زميلى السطحية، واقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير، فقد تركت كراتشى وسافرت إلى لاهور، وحلقت فوق الـــهند لأصـــل إلـــى الباكستان الشرقية، الجناح الأخر للدولة العجيبة المكونة من جناحين تفصـــل بينـــهما دولة الهند، وهبط فى بشاور، وزرت ممر خيبر ثم عدت أدراجـــى إلـــى كراتشـــى، فألفيت الفيلم الاستعمارى لا يزال يعرض) (١)

والمفارقة هنا ليست فى هذا الاستعمار الثقافى، وانما فى غفلة شـــعب بأكمله عن هذا السم الذى يوضع لهم فى الدسم ويتناولنه باستمرار وبتلـــذذ، ويقبلون عليه بشغف، والمفارقة الأخرى فى إعجاب زميله بالفيلم أيضـــــا، وعندما يدرك القارى أن ما يحدث فى بلدة، هو ما يحدث فى كـــل البـــلاد المستعمرة وان أسلوب الاستعمار واحد فى كل البلاد التى خضعـــت لـــه، تعرف أن المفرقة لا تسخر من تعب آخر، بل هى توقظ وتنبه اكثر ممـــــا تسخر من كل الشعوب المغلوبة على أمرها، وكلنا فى الهم شرق.

والمفارقة الأخرى التى يسوقها أن الساعات فى المملكة تتحدث بأكثر من لغة (... وهممنا بالانصراف فنظرت إلى ساعة معصمى والى الســـاعة

(١)وكان مساء صـــ١٣٣

المعلقة ردهة الفندق، فوجدت فرق كبير فى الزمن، وانه لمن العســــير أن تجد ساعتين يحددان زمـــن واحـــد فـــى جـــده، فســـاعة تحـــدد الزمـــن العربى، وأخرى تشير إلى الزمن العربى حسب التوقيت الإفرنجى، وثالثـه تحديد الزمن العالمى، وساعة الحسناء المصرية ضبطـــت علـــى راديـــو مصر.ان الساعات فى المملكة العربية تتحدث بأكثر من لغة.تبلبلت ألسنتها كما تبلبلت السنه البشر فى بابل) [١]

وهى ليست ملاحظة عابرة علـــى اختـــلاف الزمـــن فـــى مجتمـــع واحد، ولكنها مفارقة تكشف عن تفرقنا فى كل شئ، واختلافنا وتنافرنا فـــى اللغة والملبس والرأى، وحتى فى الزمان الذى لا يختلف عليه أحد.

- ***مفارقة الموقف (الحدث):***

-وقد تناثرت هذه المفارقات فى القصة، وأبرز هذه المفارقات تلـــك التى وقعت للمضيفة وهى تحسب الخبير المصرى-وقـــد لبـــس الثياب العربية.

- من الأغنياء العربى، وتعامل على هذا الأساس، ويكتشف الخبـــير أنها تعامله من أجل الدولارات ويوجهها إلى من هو غنى فى أعضاء الوفد، وتقبل عليه وتنسى هـــذا الخبـــير المصـــرى وتســـقطه مـــن حسابها، وتحرمه حتى من حقوقه كراكب على الطائرة (... وانبثقـــت فى أعماقى مشاعر لذيذة، وأرضى غرورى أن لا يزال فـــىّ علـــى

---

[١] وكان مساء صــ٤٩

الرغم من الشعرات البيض المتسللة إلى لحيتى ما يجذب شابة جميلـة أمامها عشرات الرجال٠كان مقعدى بالقرب من الباب الذى وضـــــع عنده ثلاجة الطائرة والبوفيـــــه،فكـــانت تمـــر علـــيّ فـــى غدوهـــا ورواحـــها، تحدثنـــى بجوارحـــها وإن أطبقـــت شـــفتيها لا تنبـــس بكلمة،وكانت العينان الخضراوان أفصح جوارحها جميعـــا. ووقفـــت بالقرب منى وقد أطفئت الأنوار.ولم يبق إلا نور خافت يساعد علــــى انسراح الخيال وتضخم الأوهام،وظلت ترمقنى وتحرضنى علــــى أن أدعوها، وطلبت كوب ماء فما أسرع أن جاءت به، وقلت لها وأنـــــا أتناول الكوب:– من أين؟ - من لاهور٠ - حقا إنها مدينة الجمــــال٠ ولم تشأ أن تضيع وقتها فى غزل لا طائل تحته، ووجـــــهت نفســـها وجهتها التى تبغيها، تعلمت من طول ركوب الطــــائرات أن الخـــط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين، وأن الطــــائرة إذا وضعـــت فــــى الاتجاه الصحيح فإنها تبلغ محطة الوصول، ***فقالت :-***

–إنكم أغنياء. أغنياء جدا٠عندكم دولارات كثيرة.وفهمت كل شئ، وأنهارت أوهامى كما تنهار قصور الحلوى إذا سلطت عليها حـــرارة النار، لم تجد فيّ ما يجذب فتاة جميلـــة مثلـــها، إنـــها باحثـــة عـــن الذهب، وإن الباحث عن الذهب لا تتقزز نفسه لو غاص فى الأوحال ما دامت تلك الأوحال تقوده إلى منجمه.

وغشيتنى موجة خفيفة من الحزن، ولكن سرعان ما انحســـــرت، بعـــد ان غسلت صدرى، وأزالت الغشاوة الكاذبة عن عينى. ***وقلت لها :-***

-حقا إننا اغنياء. أغنياء جدا. الدولارات عندنـــا تمـــلا الطرقـــات.
واشرق وجهها والتمعت عيناها ببريق الطمع. وفى مثل لمح البصـــر خطر لى أن أوجه اهتمامها إلى مصطفى، لعل عطفها عليه الذى لـــن يعرف سببه يزيل رواسب مرارة التفرقة التى ركـــدت فـــى أغـــوار وجدانه السنين الطوال. زهدت فى عطفها الزائف وعافتـــه نفســـى، ولكنى عقدت العزم على ان أوجهه وجهة صالحة، ورن فى أغوارى صوت يردد " قليل من الخمر يصلح المعدة " ولم أفطن إلى العلاقـــة بين ما تردد فى نفسى وبين ما أنا مقبل عليه... وقلت للمضيفة فـــى همس :-

-أريد أن أفضى إليك بسر وشعرت أن حواسها جميعا قـــد أرهفـــت فقلت لها :- إننى لم أر دولار واحدا فى حياتى. واتسعت عيناها فى دهشة وقبل أن تفيق من وقـــع المفاجـــأة قلـــت لـــها وأنـــا أشـــير إلى نفسى :- وهذا الرجل الماثل أمامك لم يولد إلا من عشرة ايام.

وتبدلت نظرتها إلى... لاح فيها خوف. ظننت أننى مجنون، فولـــدت فـــى صدرى بسمه لم ترتسم على شفتى، ***وقالت وهى تبتعد قليلا عنى :-***
أننى لا افهم شيئا... هذا لغز - ما ايسر حله- كيف ؟ فقلت وأنا اعتدل فـــى مقعدى :- أنى لست سعوديا، أنا مصرى لم يرى الـــدولار يومـــا، وهـــذه اللحية وهذه الثياب عمرها عشرة أيام- ولماذا أطلقـــت لحيتـــك وارتديـــت الثياب العربية ؟

- لأننى تابع لهذه البعثة، فعلى أن ارتدى ما ترتديه، أنـــا رجـــل فقـــير.

فقالت فى آسف :-

- ***حسبتك أميرا سعوديا.***
- ***وما الذى جعلك تتصورين هذا ؟***
- ***طريقة لبسك ومشيتك وحديثك، انك تختلف عن الآخرين.***
- ***هذا حق لأننى لست منهم، لا اعرف كيف البس ولا كيـــف امشـــى ولا كيـــف أتحدث، لأننى غريب لا لأننى أمير.***

والتمعت عيناها ببريق خبيث سرعان ما خبا، ففطنت إلى ما ستقوله قبـــل ان تنطق به ستستخدمنى أنا الفقير لتكتشف الكنز الدفين بين هؤلاء الرجـال الغاربين الغارقين فى الأسرار. ***واقتربت منى وقالت :***

- ومن أغنى رجل فى هؤلاء جميعا. ذلك الرجل الأسمر الراقد هناك.
- لا يبدو انه عربى، هل هو عربى ؟ – انه عربـــى صميـــم.– ولكنـــه اسمر.
- العرب بيض وسمر... انه يملك نصف مكة، جميع الدور التى تنطـــل على الكعبة ملكه. وكان هذا هو القول الفصل، تركتنى وذهبت حيـــث يرتدى مصطفى وغطته فى حنان، وتعمدت ان يرتطم مرفقها بذراعـــه التى وضعها تحت رآسة، وفتح عينه فهمست فى سحر :– اسفه. وطار النوم من عينى مصطفى... وقالت فى صوت دافـــئ – عنـــدى شـــاى ممتاز، أتحب أن أحضر لك فنجانا؟... ووقفت تناجيه... وحبست رقيـق عواطفها عنى، حتى حقى كراكب عادى سلبته منى، لم يخطـــر علـــى بالها أن تقدم لى ما قدمته لسائر رفاقى الذين كانوا معى فى الطـــائرة.

إننى رجل فقير، وحسان هذه الأيام يفرون من الفقراء فرارهـــن مــن الأجرب) [١].

- المفرقة هنا مفارقة موقف، أو مفارقة حدث، لمضيفة تريد أن تعـــامل شخصا ما برقة لتسلبه نقوده مقابل هذه المعاملة، وقد حسـبت الخبـير المصرى هو أغنى هؤلاء جميعا لأن طريقة لبسه مختلفة عنهم، فـــهو أمير وسط هؤلاء، وهنا تأتى مفارقة، فهو لم يلبس هذا اللباس إلا مـــن فترة قصيرة، والاختلاف جاء من غرابته فى اللباس، وهذا الاختـــلاف أعطاه تميزا عنهم، وتكتشف المضيفة هذا الأمر، ويدلها علـــى أغنـــى رجل فى الوفد، فإذا هى تؤكد انه ليس بعربى لأنه أســـود، وإذا هـــى تعرف مرة أخرى أن العرب سود وبيض، وتروح تغـدق علـــى هـــذا الرجل الغنى بسخاء من عواطفها ومعاملتـــها، ويختـم المؤلــف هـــذا الموقف بمفارقة أخرى فهى تصافح الرجل الجديد وتضغط علـــى يـــده وقالت له :- انتظرنى إنى قادمة. ***وتقدم الخبير ليهبط ووصل إلى حيث تقـف المضيفـــة فقـــال لـــها :-*** رحلـــة جميلـــة لمضيفـــة اجمـــل. ***فقالت فى فتور :-*** شكرا. وأشاحت بوجهها عنى، فقد صـــرت فجـــأة قذى فى عينيها.

وإذا كان " ميويك " قد عرف المفارقة الهادفة متمثلة فى أن يقـــول صاحب المفارقة شيئا من أجل يرفض على أنه زائف مساء استعماله مـــن

---

[١] وكان مساء : صــ١٥٦

جانب واحد [٢] فإننا نوسع دائرة هذا الرفض، فقد يسوق صاحب المفارقـة سلوكا معينا وينسبه إلى شخص، ويرفض القارئ نسـبته إلـى شـخص بعينه، ويروح القارئ يهتف أنا وهو وهى نصنع ذلك، وهذه العمومية هـى ما يقصدها صاحب المفارقة ويصنعها القارئ، وهى من المفارقة الهادفـة أيضا. وهذا يتمثل فى المفارقة التى معنا، فليست المضيفة فقط هى التـى تفعل ذلك، وليس الحسناوات فقط، ولكننا أو الغالبيـة منـا تنظـر هـذه النظرة، وذاك هو الرفض الذى سيرفضه القـارئ ويصنـع هـو بنفسـه المفارقة. ومن المفارقات الملحوظة التى ترسم موقفا معينا أو حدثا معينـا، ما يسوقه المؤلف عندما يريد أن يتخفف من هذه الثياب العربية التى يتعـود عليها، ويلبس الثياب الإفرنجية،ولكن رفيقه يخبره أن هذا لا يليق، فيمتثـل له وعندما يخرجان نجد المفارقة فى انتظارنا عندما نرى بعض السعوديين أنفسهم قد تخففوا من الثياب العربية ولبسوا ثيابا إفرنجية (... وأقبل سـلمى ***وقال :***- سنذهب نجوس خلال الأسواق، هيا ***فقلت له :*** ألا ترى أن نرتدى بدلنا حتى تسهل حركتنا ؟

فقال فى إنكار :- لا... لا.. هذا لا يجوز. إننا بعثة سعودية فعلينا ان نبـدو دائما فى الثوب العربى.

وارتديت ثوبى العربى وخرجت إلى قاعة الاستقبال، فألفيت بعـض زملائى السعوديين يرتدون الثياب الإفرنجية [٣]، ويرينا المؤلف كيـف أن

---

[٢] المفارقة صـ٦٧

[٣] وكان مساء صـ١١١

أناسا يعبدون الوهم ويصنعونه ويتمسكون به من خلال مفارقـــة مضحكـــة يهزأ فيها من تلك التقاليد التى لا تستحق كل هـــذا العنـــاء، (... وانتـــهت الوليمة وتأهبنا للانصراف، ونظرت إلى حذائى وأنا ارفع طـــرف الثـــوب فلمحت ثنية بنطلون البيجاما، فقد لبثت الثوب ونسيت أن أخلـــع بنطلـــون البيجاما !

وكنت أستطيع أن أسدل الثوب وانصرف بسلام، فما كشف أحـــد أمرى، وما كان أحد بقادر على أن يكشفه، فجلبابى الصوفـــى طويـــل لا يظهر منه حتى حذائى، ولكننى عزمت على آن أرى ما يفعل الزملاء لـــو عرفوا أننى كنت طول الحفلة أرتدى البيجاما ودونت من سامى وقلت لـــه وأنا ارفع طرف جلبابى. انظر، ***ولمح خطوط البيجاما العريضة فقـــال فـــى إنكار*** :- لا. هذا لا يليق.

وارتسمت على وجه امتعاضة، ورفت على شفتى بسمة وأنا أتطلع إلـــى سرواله الأبيض الطويل الذى يبدو من تحت جلبابه، لم أعرف ما الفـــرق بين سرواله المكوى المشغول طرفه بالحرير، وبيـــن بنطلـــون بيجـــامتى المستور، ولا أظن أن أى باكستانى كان بقادر على أن يفرق بين سراويلهم البيضاء وبنطلون بيجامتى لو قدر له أن يراه،ولكن سامى غضـــب لأنـــه اعتبر ارتداء بنطلون البيجاما تحت الجلبـــاب خرقـــا للتقـــاليد [٢]، وتبـــدو المفارقة هنا فى ذلك الرجل الذى يحسب أن الجميع بقادر على أن يفـــرق بين هذه الثياب وتلك، ويحرص على هذه الثياب دون تلك حرصا جيدا، مع

---

(٢) وكان مساء صـــ١١٥

أن الأطـراف الأخـرى غـير قـادرة علـى التميـيز، وإذا كـانت قادرة، فالسراول لا يراه أحد ولكنه تحت الجلباب، وليست القضية قضيـة سروال وجلباب، ولكنه يؤكد فى نهاية النص أننا جميعا نصنع الوهـم ثـم نعبده بعد ذلك، وننسى أننا نحن الذين صنعناه." ***إننا جميعا عبيد الأوهام*** "
ويسوق المؤلف مفارقة لموقف من المواقف الضاحكة الساخرة، لصديقـه الذى دل المضيفة عليه على أنه غنى، وراحـت المضيفـة تعاملـه ارق المعاملة وتظهر له خالص الود، وينطلق هذا الصديق يحكى له الكثير مـن المغامرات النسائية،وهو واثق أنه سيّصدق،ولم لا يّصدق وقد رأيت بعينـى رأسى المضيفة وهى مقبلة علية متوددة لـه (... وكـان مصطفـى إلـى جوارى فى السيارة يتدفق فى الحديث، ويقص على فى نشوة بعضـا مـن مغامراته النسائية، وهو واثق أننى سأصدق كل ما يقوله بعدمـا رأيـت بعينى رأسى، المضيفة تركع ساجدة عند قدميه [١]

والمفارقة هنا لا تسخر من هذا الشخص الذى تقبل عليه المضيفـة لماله، وهو يظن أنها مقبلة عليه لسحره وجماله، فيروح يتكى وقائع أخـرى متخيلة، مستندا على هذه الواقعة الصحيحة من وجه نظرة والزائفـة مـن وجهة نظرنا نحن، وإنما هى أشبه بسـتار رقيـق يشـف عـن ضعـف الإنسان، أى إنسان وكل إنسان أمام حب الشهرة، أو المـال أو التحلـى بصفات ليست فيه.

---

(٢) وكان مساء صـ١٥٧

-ويسوق المؤلف مفارقة أخرى قد تنتزع الضحك من نفوسنا لأنها أشـــبه "*بالنكتة*" ولكن البسمة سرعان ما تغيض وتختفى وتتلاشى لتكشـــف لنــا المفارقة عن الفرق الشاسع بين ما نفعله وبين ما ينبغى أن نفعله، ستنطوى النفس على ألم دفين. فأعضاء الوفد فى يقضون أوقاتهم مع بنات الـــهوى، ويشربون الخمر، ويراقصون النسوة وعندما يستقبلون فى حفلة، اســـتقبالا رسميا يدور هذا الحوار (... كانت هناك فكرة أن تعرض عليكم ألوان مـن الرقص الباكستانى، ولكن عدل عنها حتى لا يجرح شعوركم. فقلـــت فـــى إنكار :- يجرح شعورنا ؟ *فقالت وهى تتفرس فـــى وجــهى* :- أجــل - ولماذا ؟ لان الرقص حرام. وتذكرت المشلح الذى ارتديه واللحيـــة التـــى تملأ وجهى فقلت فى اقتضاب :- أه) [٢]، فهم كانوا يودون أن يكون فـــى الحفل رقص وطنى، ولكنهم خافوا أن يجـــرح الرقـــص شـــعور هـــؤلاء الوافدين من مهد الأديان، وبلاد المقدسات، والذين هم بالضرورة مقدسون، ومتدينون والرقص عندهم حرام، يالها من مفارقة مضحكة مبكية فـــى آن. وتأتى المفارقة الأخيرة، وفيها يكون الشخص قد دبر آمرا، ودبـــر القـــدر آمرا أخر عكس ما قدره ذلك الشخص، وهى مـــا أشـــار إليـــها ميويـــك *بقوله* :- (إن التناقض بين الإنسان بآماله ومخاوفه وأعماله، وبين القـــدر المظلم العنيد، يقدم مجالا واســـعا للكشـــف عـــن المفارقـــة المأســـاوية. (مفارقة القدر) [٣] ، فالبطل قد احب فتاة وأعجب بها وراح يدبـــر أمـــره

---

(٢) وكان مساء صـــ

(٣) المفارقة صـــ٣٤

للاقتران بها، وماذا سيفعل مع زوجتـــه التـــى تحملـت الصعــاب مــن أجله، وراح يناقش كل أمر ويذلل كل عقبة تقف فى طريقه حتى وصل فى النهاية إلى قراره (قلبى يحدثنى أنها ستقبل، ولكن أهلها مـــاذا يقولـــون ؟ سأسألها غدا هل تقبلنى زوجا لـــها ؟ فـــإن وافقـــت فـــاتحت أمـــها فـــى الموضوع [1]، وكان القدر يسخر منه وهو يقول " فاتحت أمها " لأن هـــذه الأم التى سيفاتحها فى الزواج من تلك الفتاة، لم تكن سوى حبيبتــه التـــى ضاعت منه، والتى أحب الفتاه كصورة لتلك الأم.

* *المفارقة اللفظية :-*

وهى مفارقة ملحوظة، عبارة عن تضاد فى المعنى، أو مدح يقصـد به الذم، أو قول شئ وإرادة نقيضه، والقارئ لا يبذل جهدا ليصل إلى هـذه المفارقة ولا يشارك فى صنعها، ولذلك كانت اقل درجات المفارقــــة مـــن حيث القيمة الفنيَة. وقد تناثرت صور المفارقة اللفظية فى القصـــة. *ومـــن ذلك على سبيل المثال :-*

قول بطل القصة إن زوجته قد جاءت معه إلى هذا البلـــد الغريـب لتسهر على راحتــــه، وهـــى أحـــق النـــاس بالرعايـــة والســـهر علـــى راحتها، (... وبلغنا سلم الطائرة وتقدمت زوجتى تصعد فى الدرج متمهلــة وأنا ارقبها فى إشفاق.هدها المرض،وحام حولها الموت، ومع ذلك أبـت إلا مشاركتى فى غربتى، وأن تحمل على عاتقها الواهن أثقل أعباء الزوجية.

---
(١) وكان مساء صـــ٢٢٢

هجرت بيتها الوثير، وتركت بعض أبنائها فى رعاية الله، وغـــادرت فراش المرض إلى الطائرة مباشرة لتسهر على راحتى، وهى أحق النـــاس بالرعاية والسهر [٢]، ومن تلك المفارقات أيضا التصاق طفله الصغير بـــه يطلب منه الحماية من الخوف، وما درى أن بوالده أضعاف ما يحسه مـــن ذلك الخوف (... وتقلق ابنى بى، والتصق جسمه بجسمى كأنمـــا يلتمـــس حمايتى، وما دار برأسه الصغير أن الخوف الذى بدأ ينتشر فـــى أعمـــاقى يفوق كل ما يحسه من رهبه)[١]
أو قوله (.٠٠ ورحت أرقب السيارات الرائحة الغادية، وقد انبعثت منـــها الأغانى المتباينة، ورفعت عينى أتطلع إلى مبنى الإذاعـــة الغـــارق فـــى الصمت [٢]، ***وقوله*** (... وأذن المؤذن للعشاء فانطلقت منشرح الصدر إلـــى الفندق)[٣] ، ***وقوله*** (... وانسبت فى دروب السوق أرنو إلـــى الســـيارات الفاخرة الرابضة أمام الدور القديمة فى الأزقة المنحـــدرة وإلـــى قطعـــان الماعز التى ترعى حولها أو تسند ظهورها إليها)[٤]، ***وقوله:*** - (وعدنـــا إلى الفندق وهبطنا من السيارة، وأخرج السائق اليمنى من تحـــت مقعـــدة حبحبا، وهو بطيخة صغيرة سرعان ما تتحول إلى ماء وقدمـــها لابنـــى، فأخرجت من جيبي عشرة ريالات ونفحتـــه إياهـــا. لقـــد كـــثرت هدايـــاه

---

(٢) وكان مساء صـــ٦

(١) وكان مساء صـــ١٤

(٢) وكان مساء صـــ١٧

(٣) وكان مساء صـــ٢١

(٤) وكان مساء صـــ٣٠

وترادفت، وكثر خروج عشرات الريالات من جيبى)[١]، ***وقوله:***(ليســـمح لى سعادة السفير أن أقول له إنه لا يفقه شيئا فى السياسة)[٢].

وقوله :- (بالله لا تذكرنا بالموت فما تزال زوجتى صغيرة كم سـنها ؟ - سبعة عشر ربيعا- وهل أنجبت منها ؟

- لا - وهل لا تزال عذراء ؟) [٣]

وقوله :- (إننى كلما اقتربت من المعاصى ازددت قربا من الله) [٤]

وقوله : (كنت أشعر أننى وحيد وزوجى وأولادى حولى، فإذا بـــها تمــلأ الدنيا على)[٥]، وقوله (إن أسعد لحظات حياتنا هى التى ينجح فى تزييفها الخيال) [٦]

- **المفارقة البنائية فى القصة :-**

تعد المفارقة من السمات الفنية البارزة فى هذه القصة بداية من فكـرة القصة، ومرورا بالشخصيات والنماذج التى اختارها والأحداث التى ساقها.

وقد اتضـــح مـــن الدراســـة وجـــود المفارقـــة فـــى الشـــخصيات والنماذج، وفى الأحداث وفى الأفكار الدينية والاجتماعية والثقافية، وهـــى فى مضمونها ومجملها تشكل بنية المفارقة فى القصة، أو ما يعرف بالمفارقـــة

(١)وكان مساء صـــ٣٦

(٢) وكان مساء صـــ ١٦٧

(٣)وكان مساء صـــ٢١٧

(٤)وكان مساء صـــ٢١٨

(٥)وكان مساء صـــ٢١٨

(٦)وكان مساء صـــ٢٥٦

البنائية، على أساس أن قوة الظروف الاجتماعية تبرهن على أنها اقوى من مقاصد البطل [١] والأقدار هنا من بداية القصة إلى نهايتـــها تـــهذب مـــن مقاصد البطل، وتعدل فى رغباته، وتحول سيره إلى طرف أخـــرى غـــير التى قصدها، حتى يصل البطل فى النهاية إلى قوله ما اخترت لنفسى شـــيئا واختار الله لى غيره إلا كان ما اختاره الله لى خيرا ممـــا لنفســـى [٢] وإذا جاز لنا ان نقول ان (الشخصية فى المسرحية أو الرواية أو القصة يمكـــن ان يتم تشكيلها وفق بنية تفارقيه، لكن هذه البنيـــة التفـــا رقيـــة لا تعنـــى بالضرورة إنتاج حدث أو أحداث "تفارقيه "، كما أن الحدث بدوره يمكن ان يتم تشكيلة تشكيلا تفارقيا دون أن يكون مرتبطـــا بـــالضرورة، أو ناتجـــا بالضرورة عن شخصيات تفارقيه) [٤] إذا جاز لنا أن نقول ذلـــك، فإننـــا نستطيع أن نرى بوضوح قيام القصة على فكرة المفارقة،واعتماد القصـــة فى عنصريها الأساســـين (الشـــخصيات والأحـــداث) علـــى المفارقـــة أيضا.فالشـــخصيات التـــى تمثلـــت فـــى مصطفـــى وممـــدوح والخبـــير المصرى، قامت فى بناء شخصيتها على المفارقة، وكذلك الأنموذج الـــذى سقاه متمثلا فى التابعـــة والآمـــر بـــالمعروف قـــد قـــام أساســـا علـــى ***"بنية تفارقيه*** ". والأحداث كما رسمها المؤلف قد صاغها لتشكل وترســـم بدورها تلك المفارقات. والمفارقات اللفظية التى ســـقناها أيضـــا جـــاءت

---

(٢)المفارقة : صـــ٩٨

(٢) وكان مساء صـــ٢٥١

(٢) مجلة كلية دار العلوم : العدد ٢٧. مقال : المفارقة والمسرح صـــ٣٨٢

لتحوم فى جو تفارقى يتمشى مع الأحداث والشخصيات ليرسم بيئة القصة قل أن المؤلف بحسه التفارقى صور الزمان والمكان يضجان بالتفارقيه، فالسيارة تسير فى باكستان على الشمال وليس على اليمين كما هو معهود فى بلادنا (وهممنا بعبور الطريق، فإذا خطواتنا تضطرب، اعتدنا ان نعبر الطرق الفتى تنطلق فيها السيارات والعجلات والترام على الجانب الأيمن من الشارع فاليفنا ان ناتفتى إلى اليسار، حتى إذا قطعنا نصف المسافة التفتنا الى اليمين لنكشف السيارات المقابلة ونأخذ حذرنا، ولكن الأمر كان فلى فبباكستان على عكس ما الفنينا نتلفت إلى اليمين أولا ثم إلى اليسار) (٤)، والزمان مختلف أيضا (..فنظرت إلى ساعة معصمى والى الساعة المعلقة فى ردهة الفندق، فوجدت فرقا كبيرا فى الزمن وانه من العسير ان تجد ساعتين يحددان زمنا واحدا فى جده، فساعة تحدد الزمن العربى، واخرى تشير إلى الزمن العربى حسب التوقيت الإفرنجى، وثالثه تحدد الزمن العالمى، وساعة الحسناء المصرية ضبطت على راديو مصر، إن الساعات فى المملكة العربية تتحدث بأكثر من لغة، تبلبلت ألسنتها كما تبلبلت السنه البشر فى بابل) (١)

- ***المفارقة البنائية مفارقة تفسيرية :-***

المفارقة البنائية تأتى من خلال الأحداث والشخصيات. وقد تأتى الأحداث التى تقع للشخصيات تركيبية، أى تقع تباعا وتتطور، وتأتى

(٣) وكان مساء صـ١٣٢

(٢) وكان مساء صـ٤٩

المفارقات من خـــــلال وقـــوع هـــذه الأحـــداث وتطورهـــا. وقـــد تقـــع الأحداث (المفارقات) وتكون الأحداث بعد ذلك مفسرة لهذه المفارقـــات، وليس تطورا لها، وتكون المفارقة هنا تحليلية وتفسيرية، وليست تركيبيـــة. فاذا جاءت الشخصية فى رواية القصة فى صورة رجل متدين، ثم انقلـــب فى نهاية الأحداث الـــى رجـــل مـــاجن ســـكير، تكـــون المفارقـــة هنـــا تركيبية[٢]، واذا جاء من بداية القصة يجمع بين النقيضين وجاءت احـــداث القصة لتحلل الدوافع والاسباب كانت المفارقة تحليلية والبنية التفارقية فـــى هذه القصة تحليلية، فالشخصيات التى عرضها المؤلف ظلت مـــن بدايـــة القصة إلى نهايتها بصورتها التفارقية التى ابتدأت بها القصة، والأحـــداث التى وقعت فى القصة، بما فيها من مفارقات، جاءت لتحلـــل وتفســـر لنـــا الدوافـــع والأســـباب التـــى ادت الـــى وجـــود هـــذه الشـــخصيات ذات البنية " *التفارقية* " .

فالمفارقة فى شخصية مصطفى، وتحللها وتفسرها الأحداث التفارقيـــة التى أتت بعد ذلك عندما نكشف أنة بيع هو وأمة كعبيد، وأنة ولد مـــن أب وأم شرعيين، ولكن المجتمع يزوج الفتى من أمه وهو فى الحلم، ثم يزوجة زواجا شرعيا حقيقيا عندما يبلغ مبلغ الرجال، وقد جاءت هـــذه الأحـــداث التفارقية لتفسر شخصية مصطفى التفارقية أيضا، والمفارقة فى شـــخصية ممدوح تتبعها أحداث تفارقيه تحللها وتفسرها، (... أنا رجل كامل، اقصـــد

---

[٢] البنية التفارقية المركبة (أحداث تفارقية تتنامى لتنتج فى النهاية خاتمة تراجيدية تفارقية) مجلة كلية دار العلوم. العدد ٢٧ صـ٣٨٣

"*كامل من الناحية الجسمانية*" ، وقد أوقعنى سوء حظى فى زوجة تتنعيها المعاشرة، أننى لا أنال حقى منها،.... أننى احب زوجتى على الرغم ممــا بها... زواجى يجرح شعورها، وأنا لا احب أن أحرجها. لن أتزوج، لـــن افوض هناء بيتى بيدى. وتساءلت : ترى لو نكبت بزوجة كزوجته اكنـــت اتزوج اخرى ؟ وترددت فى الإجابة وامتلأ قلبى شفقة عليه) [١]

*والمفارقة فى شخصية الخبير المصرى، وهـــى اتزانـــه واكتمالـــه وعيبه على الأخرين جريهم وراء النساء، ومع ذلك تاتى فتاة تحوله بيـــن يوم وليلة الى محب لها مدله بها، مفتون بجمالها، يجرى وراءها مغمـــص العينين، يفكر فى الزواج منها، ثم تاتى الاحداث التفارقية بعد ذلك، مغسـوة لهذه المفارقات عندما نكتشـــف ان تلـك الفتـــاة هـــى بنــت محبوبتـــه الاولى "*فاطمة*" (... كيف لم افطن ساعة ان كانت ياسمين تتحدث الـــى عن شاليمار وجنة الحب ان التى تتحدث فاطمة ؟ كـــانت روحـــى علـــى صواب لما اصرت على انها قابلت روح ياسمسن، لم يخدعها الجســم ولا الملامح المتغيرة، ولم يشككها فيما احست فارق الزمن. لقد التقت روحـــى بروحها حقا، وهامت بها حبا، فروح ياسمين قبس من روح فاطمـــة التـــى هفت اليها روحى وخفق لها قلبى خففة الحب الأولى) [٢]

---

(٢) وكان مساء صـــ١٨١

[٢] وكان مساء صـــ١٣٨

وبذلك يتضح لنا سيطرة المفارقة على عناصر القصة من شـخصيات وأحداث وأفكار وعمق، ومن هذه السيطرة أيضاً أن الأُحداث قـد جـاءت تحليلا لدوافع تلك الشخصيات التفارقية، وقد رأينا بنـاء القصـة بأكملـها وكيف قام معتمداً على التفارقية.



مراجـــــع

(١) فى الرواية المصرية

فـــــــــؤاد دوارة

دار الكاتب العربـــــى

(٢) فى النص الشعرى

دار / محمد أحمد العزب طبعة ٢٠٠٠ م

(٣) القصة من خلال تجاربى الذاتية

عبد الحميد جودة السحار

دار مصر للطباعـــــة

(٤) مجلة فصول المجلد السابع العدد ٣، ٤ مقال : "***المفارقة***"

نبيلة إبراهيم صـــ١٣١

(٥) مجلة كلية دار العلوم. العدد ٢٧. مقال "***المفارقة والمسرح***"

د. خالد سليمان "***طقوس الإشارات والتحولات***"

لسعد الله ونوس : نموذجا

(٦) المفارقة وصفاتها : دى. سى ميويك. ترجمة د. عبد الواحـــد لؤلـــؤة دار المأمون للترجمة والنشر بغداد ط٢ سنه ١٩٨٧ م.

(٧) النقد التحليلى

د / محمد عنانـــــى

الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٩١ م

(٨) وكان مساء

عبد الحميد جودة السحار

دار مصر للطباعـــــة